الظواهر الجيولوجية
في ضوء البلاغة القرآنية

(الأرض نموذجًا)

دكتور

نهلة صبري الصعيدي

قسم البلاغة والنقد
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات بالقاهرة - جامعة الأزهر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مقدمة

كان

الحمد لله الذي أنار قلوب عباده المتقين بنور كتابه المبين ، وجعل القرآن شفاء لما في الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء ، وأشرف المرسلين سيدنا محمد النبي العربي الأمين صلاة وسلامًا دائمين إلى يوم الدين ، وعلى آله الأطهار الطيبين ، وأصحابه الأبرار الهادين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين

ض

وبعد ...

فلا يزال القرآن الكريم يمنح الإنسانية من الأسرار والحكم ، والعلوم والمعارف ، والدرر والجواهر ، والذخائر والعجائب ، والدقائق واللطائف .

ولا زال يبهر العقول ، ويحير الألباب بما فيه من إشراقات إلهية ، وفيوضات قدسية ، ونفحات نورانية ، وظواهر جيولوجية ، وبلاغة ربانية ، ما هو كفيل لتخليص البشرية من شقاء الدنيا الدنية .

فالقرآن موسوعة علمية ، لا يزال يتحفنا كل يوم بالحقائق العلمية ، والثوابت اليقينية في فروع العلوم المادية والإنسانية التي اعتمدها العلماء اليوم ، والتي تشدق الغرب بأنهم مكتشفوها ومخترعوها .

فأردت في هذا البحث أن أوازن بين تكنولوجيا العصر من جهة وبلاغة القرآن من جهة أخرى ؛ لأثبت للعالم أن القرآن الكريم قد سبق الجميع بالإشارة إلى ذلك بأدق عبارة ، وأفصح لغة ، وأجمل تركيب ، وأبدع صورة .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إنها محاولة حضارية لتعريف غير المسلمين بالإسلام يقينًا لا تلقينًا خلال رحلة جيولوجية تربط المادة بالروح ، والعلم بالإيمان ، والكون بالقرآن ، وما هذا البحث إلا لبنة على طريق الكافر لنزع العداوة بين العلم والدين ، واستمالة غير المسلمين لدين الله المتين من هذا الطريق العلمي الذي له يخضعون ، وإليه ينتمون .

وجولة للمؤمن في الكون المعروض للأنظار ؛ حيث غفلة القلوب عن آياته الكبار ، وملاذ لمن عاشوا غرباء عن القرآن ، لم تتحقق لهم أسباب قراءته ، ولم يتوفروا على شيء من دراسته ، وسياحة كبرى لأرباب البلاغة وأهل الفصاحة .

ولم أحاول في بحثي هذا أن أحمل النص القرآني المستيقن على نظريات علمية غير مستيقنة ، أو أن أوفق بين النص القرآني والنظرية العلمية ، أو أن أطلب تصديقًا للقرآن في ظل نظريات بشرية ، لكني حاولت أن أثبت أن بعض النظريات الجيولوجية القائمة اليوم لا تعارض المفهوم الإجمالي للنص القرآني السابق عليها بقرون عدة ؛ بل قد جاء القرآن معبرًا عنها بمنتهى الدقة التي يعجز الطوق البشري عن الإتيان بمثلها ، ومرد ذلك إلى دقة مطابقة اللفظ للمعنى ، وهذا مما تضيق به السبل على من ينشد الدقة في التعبير ، والبلاغة في التصوير ؛ إذ تسقط فائدة المترادفات من حسابه ؛ لما يختص به كل منها من دلالة وصفة معينة ، ولا يمكن لإنسان مهما بلغت درجة فصاحته وبلاغته وحفظه لألفاظ اللغة أن يتمثل كل ألفاظها أمام عينيه ؛ ليلتقط أنسبها ، وأدقها دلالة للتعبير عن أفكاره ومشاعره ، وإنما يلتقط منها المتبادر إلى ذاكرته

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

، القريب من لسانه ، وحينئذ يقع بين أمرين ؛ إما تطويل وحشو لا فائدة منه ، وإما اختصار مفسد مخل بالمعنى .

كما حاولت أن أثبت بلاغة النظم القرآني ، وأظهر بديع نظمه ، وعجيب تأليفه ، ومحكم فواصله ، وروائع صوره ، وسموه في البلاغة إلى الحد الذي يعجز الطوق البشري عن الإتيان بمثله ، وصلاحية صياغته لمخاطبة الناس عامة على اختلاف ثقافاتهم وعصورهم .

ولست أقصد أن الآية تحتمل وجهين متناقضين ، أو فهمين متعارضين ؛ بل هو معنى واحد ، ولكن له سطح وعمق وجذور يتضمنها جميعًا أسلوب الآية ، فالعامي يفهم السطح ، والمثقف يفهم مدى معينًا من عمقه ، أما الجيولوجي فيفهم جذر المعنى كله .

وقد كانت خطتي في هذا البحث أن أحلل الكلمات لغويًا ، والآية تفسيريًا ، والظاهرة علميًا ؛ لنخلص من كل ذلك إلى استيعابها بلاغيًا ؛ فندرك الدقة اللفظية ، والروعة البيانية ، والمعجزة الإلهية من وراء تلك الظواهر الجيولوجية .

وقد قسمت هذا البحث إلى ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : منشأ الأرض وشكلها .

المبحث الثاني : تصدع الأرض وتمددها واهتزازها .

المبحث الثالث : الزلازل .

• وبعد ، فهذا اختياري أقدمه لكم ، وعقلي أعرضه عليكم ، فإن أصبت فمن فضل الله وتوفيقه ، وإن وقع بعض القصور فهذا من ضعف الإنسان وجهله .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وختامًا أقول : إن في هذا البحث وسيلة للدعوة إلى دين الله بالحجة والبراهين ، وتقوية لإيمان المؤمنين ، ودفع الفتن – التي ألبسها الإلحاد ثوب العلم – عن بلاد المسلمين ، وفيه فهم لما خطوبنا به في القرآن ، وفيه حفز للمسلمين للأخذ بأسباب النهضة العلمية ، والواجب الملقى على المسلمين تجاه ذلك ؛ فالقيام بهذه الأبحاث من أهم فروض الكفايات

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المبحث الأول

منشأ الأرض وشكلها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قال الله تعالى : (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) الأنبياء ٣٠ .

التفسير اللغوي :

قال ابن منظور في لسان العرب : رتقًا : الرتق ضد الفتق ، قال بعض المفسرين : كانت السموات رتقًا لا ينزل منها رجع ، وكانت الأرض رتقًا ليس فيها صدع [١].

وقال ابن سيده : الرتق إلحام الفتق وإصلاحه ، و رتقه : يرتقه ، ويرتقه رتقًا فارتتق أي التأم [٢]

ففتقناهما : الفتق خلاف الرتق ، فتقه يفتقه ويفتقه فتقًا : شقه [٣]

فهم المفسرين :

اختلف المفسرون في المراد بالرتق والفتق على أقوال نختصرها فيما يلي :

١. قول الحسن وقتادة وسعيد بن جبير ورواية عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهم أن المعنى : كانتا شيئًا واحدًا ملتصقين ففصل

---

(١) لسان العرب لابن منظور صـ١٥٧٧ دار المعارف ، تحقيق عبد الله علي الكبير ، محمد أحمد حسب الله ، هاشم محمد الشاذلي .

(٢) لمحكم والمحيط الأعظم تأليف أبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المتوفي سنة ٤٥٨ هـ تحقيق الدكتور عبد الحميد هنداوي دار الكتب العلمية بيروت _ لبنان صـ٣٣٠،صـ٣٤٠ .

(٣) السابق صـ ٣٤٠ .

(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ١١ صـ ٢٨٣ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧ ، إرشاد العقل السليم لأبي السعود جـ٥ صـ٦٤ دار إحياء التراث العربي .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الله بينهما ، ورفع السماء إلى حيث هي ، وأقر الأرض ، وهذا يوجب أن خلق الأرض مقدم على خلق السماء [١]

٢. قول ابن عباس وأكثر المفسرين : أن السموات والأرض كانتا رتقًا بالاستواء والصلابة ، ففتق الله السماء بالمطر والأرض بالنبات والشجر [٢]

٣. قول أبي مسلم الأصفهاني : يجوز أن يراد بالفتق الإيجاد والإظهار ، وبهذا يكون الرتق مجازًا عن العدم والفتق عن الوجود[٣].

وهذه كلها معان تتسع لها الآية القرآنية ، لكن لا يليق ونحن في بدايات القرن الواحد والعشرين أن نقف بالتفسير على ما وقف عليه الأقدمون خاصة بعد ظهور الاكتشافات العلمية ، والظواهر الجيولوجية ، فالقرآن معجزة علمية بلاغية من واجبنا تعميم ذلك وتدريسه لأبنائنا ؛ لنبين للعالم أن القرآن قد سبق الجميع بالإشارة إلى تلك الثوابت العلمية ، التي أصبحت في عصرنا الحديث قواعد ثابتة تدرس على أن العرب هم مخترعوها ومكتشفوها .

لذا لابد لنا أولاً من شرح الظاهرة علميًّا ، ثم تحليلها بلاغيًّا ؛ ليتسنى لنا الإدراك الحقيقي لبلاغة ذلك القرآن المعجز ؛ أعني الإدراك المسبوق بالعلم والفهم ؛ فتنزل الآية من النفس منزلة الإقناع والتثبت .

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير القرشي الدمشقي ، تحقيق سامي محمد السلامة ، دار طيبة للنشر والتوزيع ط الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م ، جـ٤ صـ٥٦٠.

(٢) الفخر الرازي صـ١٦١ جـ٢٢ مجلد ١١ دار الكتب العلمية ط الأولى سنة ٢٠٠٠ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الظاهرة علميًا :

إن مسألة نشأة الكون من القضايا التي تكلم فيها الفلاسفة والعلماء ، ولكنها كانت خبط عشواء ، ولا تزال كذلك إلى يومنا هذا ؛ فلقد تعددت النظريات والتصورات إلى أن جاء عالم الفلك البلجيكي جورج لوميتر George Le Maitre سنة ١٩٢٧م وتحدث عن أن الكون كان في بدء نشأته كتلة غازية عظيمة الكثافة ، واللمعان ، والحرارة ، وأسماها البيضة الكونية ، ثم حصل في هذه الكتلة بتأثير الضغط الهائل المنبثق من شدة حرارتها انفجار عظيم فتتها وقذفها مع أجزائها في كل اتجاه ؛ فتكونت مع مرور الوقت الكواكب والنجوم والمجرات ، ولقد سمى بعض العلماء هذه النظرية بالانفجار العظيم Big Bang .

وفي عام ١٨٤٠م أيد العالم الأمريكي من أصل روسي جورج غاموف George Gamov نظرية الانفجار العظيم مما مهد الطريق لكل من العالمين بانزياس Penziaz و" ويلسون " Wilson سنة ١٩٦٤م اللذين التقطا موجات راديو منبعثة من جميع أرجاء الكون لها نفس الخصائص الفيزيائية في أي مكان سجلت فيه ، لا تتغير مع الزمن أو الاتجاه فسميت النور المتحجر أي النور الآتي من الأزمنة السحيقة ، وهي من بقايا الانفجار العظيم الذي حصل في الثواني التي تلت نشأة الكون .

وفي سنة ١٩٨٩م أرسلت وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) قمرها الاصطناعي Cobe Explorer والذي قام بعد ثلاث سنوات بإرسال

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

معلومات دقيقة إلى الأرض تؤكد الانفجار العظيم ، وسمي هذا الاكتشاف باكتشاف القرن العشرين .[١]

هذه الحقائق العلمية التي ذكرها العلماء على مراحل ، واكتشفوها على مدى أزمنة عديدة وسنوات طويلة هذه الحقائق وهي قابلة للتعديل ، فما زالوا في تصورات جديدة ونظريات متعددة يلغي بعضها بعضًا ، هذه الحقائق ذكرها القرآن جملة واحدة بكلمات دقيقة مختصرة ، وثبت عليها دون تغيير أو تبديل أو تعديل مع صلاحية مخاطبتها لكل زمان ومكان .

وجوه البلاغة في الآية القرآنية :

لقد كانت هذه الآية معجزة علمية بلاغية ؛ ففيها ازدواجية رائعة بديعة بين العلم والأدب ؛ لتحقق الإقناع من جانبها العلمي ، والإمتاع من ناحيتها الأدبية البلاغية ؛ لتأتي بالنتيجة المطلوبة في نهايتها وهي واحد من اثنين لا ثالث لهما إما الإيمان وإما الإفحام .

(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) الأنبياء (٣٠) .

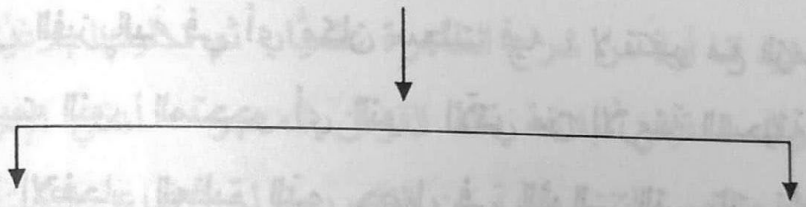

إيمان لأهل الإيمان　　إفحام لأهل الكفر والجحود والنكران

إذ قررت الآية حقيقتين في غاية الأهمية ، تمثلت الأولى في أن :

---

(١) من علوم الأرض القرآنية د/ عدنان الشريف صـ١٧ ط الثانية ١٩٩٤ دار العلم للملايين .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- نشأة الكون بدأت إثر الانفجار العظيم بعد أن كان كتلة واحدة ملتصقة ؛ إذ الرتق هو الالتصاق ، ثم حدث لهذه الكتلة الواحدة (فتق) أي انفصال وانفجار تكونت بعده المجرات والكواكب والنجوم .

- أما الحقيقة الثانية ، فهي سر الحياة ومهد الوجود حقيقة الماء ، تلك الحقيقة التي عد العلماء اكتشافها وتقريرها أمرًا خطيرًا ، وخطبًا جللاً ، وعظموا ومجدوا " دارون " ؛ لاكتشافها ، وذاع صيته ، وخلد اسمه ؛ لاهتدائه إليها ، وسميت بنظرية النشوء والارتقاء ، وهي كما قال سيد قطب : " إنها حقيقة تثير الانتباه حقًا " ، وإن كان ورودها في القرآن الكريم لا يثير العجب في نفوسنا ، ولا يزيدنا يقينًا بصدق هذا القرآن ، فنحن نستمد الاعتقاد بصدقه المطلق في كل ما يقرره من إيماننا بأنه من عند الله ، لا من موافقة النظريات أو الكشوف العلمية له [1] .

ثم انظر إلى هذا الاستفهام الموجه إلى الكفار ، وقارنه بما حدث في الحقيقة ، أليس من اكتشف هذه الظاهرة هم الكفار أنفسهم ؟! فهم المعنيون به ؛ إذ كفروا بوجوده سبحانه ، وبقدرته ، وسر صنيعه فكان حقًا الإنكار عليهم وتوبيخهم بهذا الاستفهام ، حيث يشاهدون غرائب صنع الله وعجائبه ومع هذا يعبدون غيره مما لا ينفع ولا يضر .

وقد توجه هذا الإنكار على إهمالهم للنظر إن كانت الرؤية بصرية ، وإن كانت علمية تكون على إهمالهم التدبر في المشاهدات .

" والرؤية تحتمل أن تكون بصرية وأن تكون علمية ، والاستفهام صالح لأن يتوجه إلى كلتيهما ؛ لأن إهمال النظر في المشاهدات الدالة على علم ما ينفذ علمه من التورط في العقائد الضالة حقيق بالإنكار ، وإنكار

---

[1] في ظلال القرآن سيد قطب ص ٢٣٧٦ المجلد الرابع ، دار الشروق .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إعمال الفكر في دلالة الأشياء على لوازمها حتى لا يقع أحد في الضلال جدير أيضًا بالإنكار أو بالتقرير المشوب بإنكار " [١]

والإنكار يحمل في طياته التجهيل لهم بتقصيرهم في التدبر في الآيات الكونية .

كما يفيد الاستفهام أيضًا التنبيه والتعجب ، يقول صاحب البرهان : " وإذا دخلت الهمزة على "لم" أفادت معنيين : أحدهما : التنبيه والتذكير نحو : (أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ) الفرقان ٤٥

والثاني : التعجب من الأمر العظيم ، كقولك : ألم تر إلى فلان يقول كذا ، ويعمل كذا !! على طريق التعجب منه ، وكيف كان فهي تحذير . [٢]

والواو للعطف على مقدر ، والتقدير : " أو لم ينظر هؤلاء الذين كفروا بربهم ، وجحدوا الإخلاص له في العبودية ما يدلهم دلالة مشاهدة على أنه الرب المحمود الكريم المعبود فيشاهدون السماء والأرض فيجدونها رتقًا " [٣]

والسر البلاغي من وراء هذا الحذف : إعلامهم بأن الدلائل على وحدانية الله ظاهرة معلومة فلم يرد الإطالة عليهم ، تلك الإطالة التي قد تحجب الرؤية الظاهرة الملموسة لقدرة الله عز وجل ، والتي قد يفهم منها

---

[١] التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور صـ٥٣ مجلد ١٧ الدار التونسية للنشر .

[٢] البرهان في علوم القرآن جـ٤ صـ١٧٩ المكتبة العصرية بيروت تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم

[٣] تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان تأليف الشيخ عبد الرحمن ناصر السعدي ص٣١٠ جـ٣ ، دار الصفا للنشر والتوزيع ١٣٠٧١٣٧٦هـ ، راجعه وقدم له طه عبد الرؤوف .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخصم أن الطرف الآخر حجته واهية ضعيفة ؛ لذا فهو يطيل في الكلام لمحاولة إثبات رأيه ، وحاشا لله أن يكون كذلك .

كما أراد من وراء هذا الحذف المسارعة في إثبات قدرته عز وجل ؛ ليكون الرد رادعًا عاجلاً دون فاصل زمني لمن ادعى الألوهية ، فالله أحق بها ؛ لظهور دلائل قدرته .

كما أنه لا فائدة من الإطالة مع هؤلاء ؛ لأنهم إذا لم يقتنعوا بكل هذه البراهين الساطعة الواضحة الملموسة أيقنعهم الجدال والمناقشة معهم والحوار كلا والله ؟!!!

ولذا جاء استخدام لفظ الرؤية بليغاً في موقعه ؛ إذ أغنى عن كل هذا المحذوف ؛ إذ الرؤية تجمع بين الرؤية الحسية والرؤية العلمية المؤدية لليقين ، ولا يفي بكل هذه المعاني (النظر أو المشاهدة) ؛ لأنهما ينصرفان إلى الرؤية الحسية فحسب ، ولا شك أن قطع الطريق على الكفار بكل السبل والوسائل الحسية والعقلية أفحم لهم وأردع وأقنع .

هذا بالإضافة إلى ما تتسم به لفظة " ير " من الرقة والسلاسة والسماحة والإيجاز التي تتناسب مع الدعوة إلى دين الله ، وعدم التطويل فيما هو ظاهر وواضح بين .

وقد استوقفني وحيرني كثيرًا هذا اللفظ (ير) ؛ لأني وجدت القرآن في عشرات الآيات التي تخص حاسة الإبصار لم يحدد لفظاً معيناً .

فهو أحيانًا يستخدم لفظًا مشتقًا من (بصر) وأحيانًا أخرى من لفظ (رأى) وأحيانًا (نظر) ، والألفاظ الثلاثة مختلفة تمامًا في البنية اللغوية وليس بينها حرف واحد مشترك سوى حرف الراء ، كما أنها ليست من المترادفات بحيث يصح استعمال أي لفظ منها مكان أي لفظ آخر دون

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإخلال بالمعنى ، فهذا خطأ يتنزه كلام الله عن مجرد التعرض للقليل منه ، وليس صحيحًا أن استعمال الألفاظ الثلاثة من قبيل التنويع الدال على الثراء اللفظي ، ومما أكد لي هذا ، وأوقفني أمامه متعجبة مندهشة تلك الآية البديعة المعجزة التي ورد فيها اجتماع (الرؤية) و (البصر) و (النظر) " وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ " الأعراف ١٩٨.

فلا بد أن وراء هذا التنويع اللفظي وظيفة أهم ، هي دقة التعبير عن خصوصية المعنى ، ولذا لابد من ربط الحقائق العلمية بالبلاغة القرآنية .

إن وظيفة الإبصار (vision) عملية مركبة من شقين متكاملين هما : النظر (looking) وتقوم به العين ، والرؤية (sight) ويقوم بها مركز عصبي خاص في قشرة المخ (الدماغ brain) وهو متصل بشبكية العين عن طريق العصب البصري ، وبقيام هذا المركز بإدراك ما يرد إليه من الشبكية تتم عملية الإبصار ، فالنظر بلا رؤية معناه عدم القدرة على الإبصار بسبب انعدام الركن الفعلي أو الإدراكي وهو الرؤية .

إن التكامل الوظيفي بين العين والمخ في إتمام عملية الإبصار لا يمنع من أن يقوم كل منهما بعمله مستقلاً عن الآخر مع اختلاف النتيجة وفقًا للجزء الذي يعمل ، فقد يكون هناك نظر بلا رؤية أو رؤية بلا نظر .

وبناء على تلك الحقائق العلمية الأساسية فإن عملية الإبصار لا تتم إذا انعدم أحد شقيها ، ولكن الشق الذي يتم أداؤه يأخذ شكل ظاهرة غير مألوفة ؛ لأنها تمثل عملية فسيولوجية ناقصة .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فالنظر بلا رؤية يحدث عندما يكون الناظر شارد الذهن أو في حالة رعب شديد مفاجئ ، أو واقعًا تحت تأثير الخمور أو المخدرات ... فكل هذه الأسباب تسبب عطلاً مؤقتًا لخلايا المراكز العصبية في المخ (بما فيها مركز الإبصار) ، أما الرؤية بلا نظر فتحدث نتيجة عطل في عضو النظر (العين) ، أو عضو نقل الصورة (العصب البصري) أو كليهما بشرط بقاء المراكز العصبية ، (وأولهما مركز الإبصار) سليمة عضويًا ووظيفيًا .

ض

فالرؤية هي الخطوة التالية للنظر ، وإنها هي التي تتم بها عملية الإبصار ... فهي إذًا الخطوة الحاسمة ، ونظرًا لأهميتها فإن القرآن كثيرًا ما يعطي لفظ (رأى) ومشتقاته الأولوية في التعبير عن عملية الإبصار كلها ... خصوصًا إذا كان الهدف الرئيس منها هو التدبر والاعتبار ، وهذا التفضيل يتناسب مع كون الرؤية من الوظائف العليا التي يقوم بها المخ الإرادي وهو المتحكم في الجوارح والتصرفات .

- وتخيل لو قال الله عزَّ و جلَّ : " أو لم يبصر الذين كفروا ....." ؛ لأفاد أن المنشود موجود ويمكن إبصاره ، وهذا لا يليق أن أخاطب به أمة لم تعرف شيئًا عن هذه الحقيقة العلمية التي لم يكتشفها العلماء إلا في القرن العشرين وبعد توافر الأجهزة الحديثة .

ولهذا كان لفظ " ير " أدق من أي من اللفظتيين الأخريين في التعبير هنا ؛ لأن لفظ " بصر " كما قلنا يفيد اكتمال عملية الإبصار ، وهذه الآية عندما نزلت لم يتمكن الكفار من رؤية هذه الحقيقة العلمية .

ولأنه لو عبر ب " نظر " لم يفد هذا الفعل الرؤية فلربما نظروا ، لكنهم لم يروا شيئًا حقيقة ، أولم يروا شيئًا ؛ لأنهم لا يريدون رؤية ما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يثبت قدرة الله عز وجل ، فالتعبير القرآني أغفل تمامًا عملية النظر وتخطى هذه المرحلة ؛ ليصل إلى ما بعدها وهو الرؤية التي تمت بها عملية الإبصار

إن لفظ " ير " قد استعمل بإحكام للتعبير عن الجزء الذي يخصه من عملية الإبصار .

إنه تعبير فني مقصود ، حسب لكل كلمة فيه حسابها ، بل لكل حرف ، بل لكل حركة ، مما يجعلنا ننتهي إلى حقيقة مسلمة وهي أن القرآن لا يمكن أن يكون من كلام البشر ، وأن الخلق أولهم وآخرهم لو اجتمعوا على أن يفعلوا ذلك ما قدروا ولا قاربوا .

إنها الدقة الإلهية ، والصنعة الربانية ، والبلاغة القرآنية من رب البرية وخالق البشرية فسبحان اللـــــه !!!! الذي خلقنا في أحسن تقويم ، وصورنا فأحسن صورنا ، وجعل عيوننا نوافذ نطل منها على عالم الموجودات التي أبدعها سبحانه وتعالى ، ونسأله أن يتم علينا بأن ينير بصائرنا كما أنار أبصارنا فهو وحده نور السموات والأرض ، وهو الذي لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار .

ولقائل أن يقول إن قوله تعالى : " أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا ... " يقتضي أن الذين كفروا قد رأوا هذه الظاهرة العجيبة ، إما عن طريق المشاهدة أو السماع ، ولو لم يكونوا قد شاهدوا حقًّا لما جاز خطابهم بهذا الخطاب الذي يقتضي أن ما بعده قد وقع ، وأنهم شاهدوه أو شاهدوا آثاره ، ونحن نجيب على ذلك بقولنا : نعم القرآن صالح لمخاطبة جميع الناس في جميع العصور ، وفي العصر الحديث قد تحققت لهم الرؤية فرأوا بأعينهم هذه الحقيقة العجيبة التي أخبر الله عنها منذ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أكثر من ألف وأربعمائة سنة مضت ، أما في الماضي فكما قال الزمخشري :

"إنه ورد في القرآن الكريم الذي هو معجزة في نفسه فقام مقام المرئي المشاهد ، أو أن تلاصق الأرض والسماء وتباينهما كلاهما جائز في العقل ، فلابد للتباين دون التلاصق من مخصص وهو القديم سبحانه . (١)

أو كما قال الفخر الرازي : " أن اليهود والنصارى كانوا عالمين بذلك ، فإنه جاء في التوراة أن الله تعالى خلق جوهرة ، ثم نظر إليها بعين الهيبة فصارت ماء ، ثم خلق السموات والأرض منها ، وفتق بينهما ، وكان بين عبدة الأوثان وبين اليهود نوع صداقة بسبب الاشتراك في عداوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فاحتج الله تعالى عليهم بهذه الحجة بناء على أنهم يقبلون قول اليهود في ذلك ، وكما سبق أن ذكرنا من أن هناك حكمة في التعبير بلفظ (ير) " (٢) .

وتأمل في روعة العدول إلى التعبير بالصلة دون غيرها في قوله : " الذين كفروا " ليكمل بها منظومة الإنكار عليهم ، والتوبيخ لهم ، فالصلة تشير إلى ذمهم ووصمهم بتلك الصفة وتعريفهم بها وهي صفة الكفر .

ثم أشار القرآن الكريم بعد أن نبه الكفار وذكرهم بجلائل قدرته أشار إشارة علمية دقيقة لهذه النشأة الكونية بكافة تفاصيلها المحكمة

---

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري جـ ٣ صـ ١١٤ ، مكتبة العبيكان الرياض ط الأولى ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م

(٢) الفخر الرازي ص ١٦١ مجلد ١١ ج ٢٢ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التي عبر عنها العلم الحديث بنظرية الانفجار ، تلك الإشارة التي تطوف بالقلب البشري من فرط بلاغتها وفصاحتها ، وبالعقل الإنساني من شدة دقتها وإحكامها فتطلعك على مجالات وآفاق ، وأعماق وطبقات ؛ إذ عرضت للكون كله من سماء وأرض وما حدث فيهما من فتق بعد رتق ، كما عرضت لعنصر الحياة وأساس الوجود للماء الذي به تستقيم حياة المخلوقات ، كل ذلك لإقرار عقيدة التوحيد ، فجاء هذا التعبير البليغ وتلك الكلمات الدقيقة :

الرتق والفتق

ولو أنك حشدت كل ألفاظ اللغة ، أو سقت كل كلماتها لوجدت أن اللغة كلها أعجز من أن تأتي بألفاظ مثلها أو خير منها في الدلالة على المعنى ؛ إذ هاتان الكلمتان تستخدمان مع النسيج ، فعندما يمزق النسيج ويباعد بين خيوطه نقول : " فتق الثوب " ، والرتق هو العكس أي جمع وضم هذا النسيج ، ويصيبك العجب والدهشة عندما تستمع إلى قول العلماء من أن الكون في بداية أمره كان عبارة عن مادة على شكل نسيج متقارب ومتراكم بعضه فوق بعض ، ثم بدأت خيوط هذا النسيج الكوني تتباعد عن بعضها باستمرار تمامًا كما تتباعد الخيوط[١] ، وقد قاموا بتصويرها ، أعني (عملية الفتق وتباعد الخيوط) .

---

(١) الكون - تأليف كولين رونان - الأهلية للنشر والتوزيع - بيروت ١٩٨٠ م ، Davies , G, 2005. Dynamic Earty,plumes,and mantle convection 2 nd Edition, cambridye university press,458 p.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

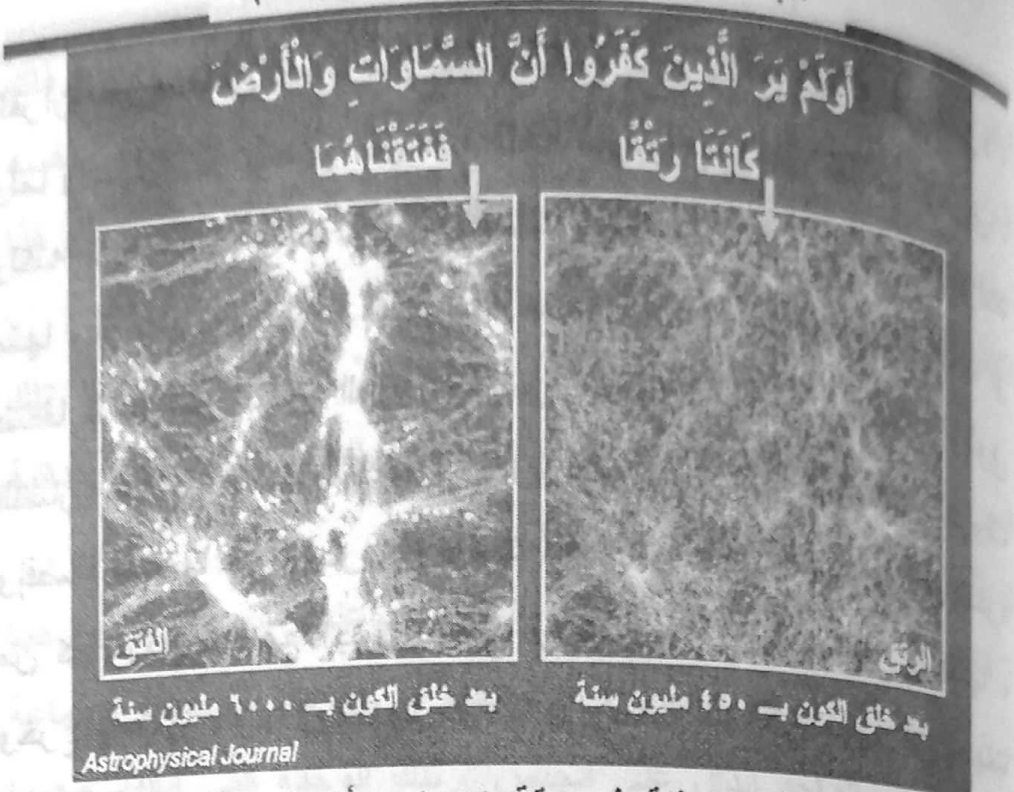

إنها البلاغة الرفيعة المتمثلة في دقة اختيار الألفاظ والتناسب المدهش بين اللفظ ومعناه.

بعد أن عرفنا كل هذا أنستطيع أن نضع مكان الرتق التحامًا ، أو التصاقًا ، أو انضمامًا ، أو التزاقًا وهي من حيث الدلالة اللغوية مثل الرتق ؟؟؟!!

، أو نضع بدل (الفتق) انفصالاً ، أو نزعًا ، أو فكًّا ، أو بعدًا وهي أيضًا من حيث الدلالة اللغوية مثل (الفتق) ؟؟؟!!

أترك لك الإجابة أيها القارئ الكريم .

ثم إن كلمة (فتقناهما) تعطي لك مع المعنى الصوت ؛ أعني صوت الفتق ، ذلك الصوت الذي عبرت عنه التاء والقاف أبلغ تعبير فتخيل ذلك في ذهنك . " وهذه هي طريقة الاستهواء الصوتي في اللغة ، وأثرها طبيعي في كل نفس ، فهي تشبه في القرآن الكريم أن تكون صوت إعجازه الذي يخاطب به كل نفس تفهمه ، وكل نفس لا تفهمه ، ثم لا تجد من النفوس على أي حال إلا الإقرار والاستجابة ، ولو أنزل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القرآن بغيرها لكان ضربًا من الكلام البليغ الذي يطمع فيه أو في أكثره ، ولما وجد فيه أثر يتعدى أهل هذه اللغة العربية إلى أهل اللغات الأخرى ، ولكنه انفرد بهذا الوجه للعجز ، فتألفت كلماته من حروف لو سقط واحد منها ، أو بدل بغيره ، أو أقحم معه حرف آخر ، لكان ذلك خللاً بينًا ، أو ضعفًا ظاهرًا في نسق الوزن وجرس النغمة وفي حسن السمع وذوق اللسان ، وفي انسجام العبارة ، وبراعة المخرج ، وتساند الحروف وإفضاء بعضها إلى بعض ، ولرأيت لذلك هجنة في السمع كالذي تنكره من كل مرئي لم تقع أجزاؤه على ترتيبها ، ولم تتفق على طبقاتها ، وخرج بعضها طولاً وبعضها عرضاً ، وذهب ما بقي منها إلى جهات متناكرة "[1]

ولا يخفي ذلك الطباق الذي بين الفتق والرتق الذي يتكاتف مع سياق الآية ؛ ليجعلنا نذعن لقدرة الله وعظمته ، فمن نعمة الله علينا ذلك الفتق بعد الرتق فبضدها تتمايز الأشياء ، فلولا الرتق لما عرفنا نعمة الفتق ، ثم انظر إلى جلال الربوبية المتمثل في إسناده الفتق له جل جلاله ؛ إذ ذكر المسند إليه قائلاً " ففتقناهما " دون " ففتقتا " مع أنه من المناسب لقوله " كانتا رتقا " ؛ليستدل على عظمة القدرة في الفتق ؛إذ الرتق متمكن منهما أشد تمكن يحتاج إلى فاعل قادر قوي فكانت (نا) الفاعلين كما أن الفعل يدل على حدوث الفتق ابتداءً ، وأنه ليس منه شيء أزلي ، إنه مظهر جلال الربوبية الذي يظهر حقيقة الإعجاز القرآني والذي تشع منه رهبة الربوبية وجبروت الألوهية ، وليس لإنسان كائنًا من كان

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية مصطفى صادق الرافعي صـ ١٩١ المكتبة العصرية بيروت ١٤٢٤هـ ٢٠٠٤م.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القدرة على تنصيب نفسه ربًّا للعالمين ، فينطق بنا الفاعلين ؛ لأن ذلك ضرب من المستحيل ؛ إذ يعجز الإنسان في الحقيقة أن يجعل من نفسه شخصًا آخر ، فيتحلى بصفاته ويتطبع بطباعه ، إذًا أفيقدر على مثل هذا الكلام إلا رب الأنام .

وما أروع فاء التعقيب في " فتقناهما " التي تدعم وتؤكد تلك السرعة والقدرة ، إنها كلها أدلة سيقت لتأكيد القدرة الإلهية والوحدانية المطلقة بلا منازع ، ثم قال عز من قائل :

" كانتا رتقًا " بالتثنية ولم يقل " كن رتقًا "؛ (باعتبار النوعين اللذين هما نوع السماء ، ونوع الأرض)[1] ، فالمراد جماعة السموات وجماعة الأرض ، أي الواحد الدال على الجنس ، تلك الوحدة التي اتفقت مع ما أكده العلماء المعاصرون من أن العناصر التي في الشمس هي عينها التي في الأرض ، فالعناصر التي بني فيها الكون على اختلافها هي عناصر واحدة ، ومن هذه العناصر الهيدروجين والهيليوم والكربون والأوزون والأكسجين والحديد ... إلخ

وقد استدلوا على ذلك بالتحليل الطيفي ، وهو الذي يستدل به الكيماويون اليوم في معاملهم على ما تحتويه المواد الأرضية من عناصر ، فسبحان الله ، ثم إنه قد أخبر سبحانه عن رتق السموات والأرض بالمصدر للمبالغة في حصول الصفة ، فيكون في فتقهما إبراز

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشيخ العلامة محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي ١٣٢٥ - ١٣٩٣ ، إشراف بكر بن عبد الله أبو زيد ، دار عالم الفوائد جـ٤ صـ٥٦٢

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لمنتهى القدرة ، والتقدير على حذف موصوف أي كانتا شيئًا رتقًا ، أو على حذف مضاف كانتا ذواتي رتق ، أو بمعني المفعول أي مرتوقتين . إنها كلها أسلحة وأدوات وظفت وجندت لخدمة القضية قضية الألوهية ، أسلحة متنوعة من تعبير بالمصدر ، ثم تعبير بالفعل ، ثم في انتقاء الكلمات واختيارها وانتقاء الأسلوب الإنشائي ، ثم الانتقال إلى الأسلوب الخبري في قوله :

" أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا " ثم التأكيد بأن واسمية الجملة ؛ نظرًا لغرابة الخبر ، فالنظرية غريبة لقوم سمعوها منذ أكثر من ١٤٠٠ سنة ، فاحتاج هؤلاء الكفار إلى التحقق والتثبت منه ؛ ليتقرر في أنفسهم فيؤمنوا ، ويحصل المؤمنون على أدلة مادية فتزداد نفوسهم اطمئنانًا ووثوقًا في قدرة الله عز وجل ، ثم جاء بعد ذلك بخبر أن فعلاً ماضيًا ؛ ليدلل به على تحقق وقوع ذلك فتكتمل منظومة الإثبات والقدرة ، وقد جاءت لفظة الأرض مفردة بخلاف السماء ولم ترد في القرآن الكريم كله إلا مفردة ، " ولما احتاج إلى جمعها أخرجها على هذه الصورة التي ذهبت بسر الفصاحة وذهب بها حتى خرجت من الروعة بحيث يسجد لها كل فكر سجدة طويلة وهي في قوله تعالى : " اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ " الطلاق ١٢

ولم يقل : وسبع أرضين ؛ لهذه الجسأة التي تدخل اللفظ ويختل بها النظم اختلالاً ، وانظر هل تتلاحق هذه الأسباب الدقيقة أو تتيسر مادتها الفكرية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لأحد من الناس فيما يتعاطاه من الصناعة ، أو بتكلفة من القول ، وإن استقصى فيه الذرائع ، وبالغ الأسباب ، وأحكم ما قبله وما وراءه " [١] .

ثم انتقل عز وجل إلى الحقيقة الثانية وهي الماء قائلاً : (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) الأنبياء ٣٠، ولننظر إلى ذلك العطف حيث وصل بين هذه الجملة بما قبلها للدلالة على قوة هذه الآية بما قبلها ، وأنها بمنزلة ومكانة منها واختصاص بها ؛ لأن للماء تعلقًا بما قبله ؛ إذ فتق الله السماء بالمطر والأرض بالنبات والشجر ، والمعنى : (وجعلنا من الماء الذي أنزلناه بفتقنا السماء ، وأنبتنا به أنواع النبات بفتقنا الأرض ، كل شيء حي) [٢] .

والغرض البلاغي من هذا العطف التأكيد ، والتقوية ، وزيادة الاستدلال بما هو أظهر لرؤية الأبصار ، والجملة خبرية غرضها العبرة والعظة للمتأمل في خلق الحيوان ؛ إذ هو مكون من الماء ، ولا يعيش إلا معه فإذا انعدم منه فقد الحياة ، وأبسط دليل على ذلك الحمّى عندما تصيب الإنسان وتتمكن منه تؤدي به إلى الهزال ومن ثم إلى الموت ، فالإنسان يستطيع أن يبقى عدة أسابيع بدون غذاء ، وعدة أيام بدون الماء الذي يؤلف ٧٠% من أعضائه " والماء هو السائل الوحيد الذي تستطيع أن تذوب فيه أغلب العناصر الطبيعية التي تتألف منها الأشياء ، وعددها ٩٢ عنصرًا تبدأ بالهيدروجين وتنتهي بالأورانيوم ". [٣]

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية – مصطفي صادق الرافعي – المكتبة العصرية بيروت ص ١٩١ ١٤٢٤هـ ٢٠٠٤م

(٢) – أضواء البيان في إيضاح القرآن ، ج ٤ ص ٥٦٢ .

(٣) من علوم الأرض القرآنية د/ عدنان الشريف صـ١٠٣

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فلا عجب إذا رأينا القرآن رابطًا بين هاتين الجملتين فهو في الأولى يتحدث عن نشأة الكون ، ولا حياة للكون بدون ماء ، فالماء مهد الحياة بكل أشكالها .

ثم جاء التعبير بقوله " وجعلنا " ولم يقل " وخلقنا " ؛ لأن جعل لفظ عام في الأفعال ، ولما كان قوله تعالى : " كل شيء حي " مراد به عموم المخلوقات ناسب التعبير عنه بفعل يدل على العموم ، " كما أن الخلق فيه معنى التقدير ، وفي الجعل معنى التصيير ، كإنشاء شيء من شيء أو تصيير شيء شيئًا ، أو نقله من مكان ، وأيضًا فالخلق يكون عن عدم سابق ؛ حيث لا يتقدم مادة ولا سبب محسوس ، والجعل يتوقف على موجود مغاير للمجهول ، يكون منه المجعول أو عنه ، كالمادة والسبب ولا يرد في القرآن العظيم لفظ (جعل) في الأكثر مرادًا به الخلق ، إلا حيث يكون قبله ما يكون عنه أو منه أو شيئًا فيه محسوسًا عنه ، يكون ذلك المخلوق الثاني ، بخلاف (خلق) فإن العبارة تقع كثيرًا به عما لم يتقدم وجوده وجود مغاير ، يكون عنه هذا الثاني"[١]

وتأمل في الدقة القرآنية والبلاغة الإلهية فقد عرّف الماء بأل الجنسية ، مع أن الله نكرها في آية أخري مع التعبير " بالخلق " بدل (الجعل) في قوله تعالي : " خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ " النور ٤٥ ؛ لأنه عندما عرّف كان المعنى أن أجناس الحيوان كلها مخلوقة من هذا الجنس الذي هو الماء ، فالغرض إظهار أن الأشياء المتفقة في جنس الحياة قد تكونت بالقدرة من جنس الماء المختلف الأنواع ، وأما التنكير فالغرض إظهار

---

(١) البرهان في علوم القرآن جـ٤ صـ١٢٩ المكتبة العصرية بيروت تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن شيئًا واحدًا قد تكونت منه بالقدرة أشياء مختلفة ؛ لأن المعنى أن الله سبحانه وتعالى خلق كل دابة من نوع مخصوص من الماء وهو النطفة ، ثم خالف بين المخلوقات بحسب اختلاف نطفها ، فمنها الحشرات ومنها البهائم ومنها الأشخاص ... إلخ ، وجعل هنا متعدية إلى مفعول واحد ؛ لأنها غير مراد منها التحول من حال إلى حال ، و(من) هنا ابتدائية ، وقد جاء تعريف الماء متناسبًا مع تنكير شيء ومع لفظ العموم " كل " فهي تؤكد ما سبق أن قلناه .

(أفلا يؤمنون)

فيها إيجاز ، والمعنى : أفلا يؤمنون بأن يتدبروا هذه الأدلة ، فيعلموا بها الخالق الذي لا يشبه غيره ، ويتركوا طريق الشرك ، والاستفهام إنكاري ؛ إذ لم يؤمنوا مع وجود ما يقتضيه الإيمان من البراهين والأدلة ، ويحمل التوبيخ على الكفر بآيات الله ، " وفيه معنى التعجب من ضعف عقولهم " [١] ، والفاء للعطف على مقدر يستدعيه الإنكار السابق ، والتقدير : أيعلمون ذلك فلا يؤمنون ، وهنا ينتهي الإقناع ؛ إقناع الكفار بوحدة الإله .

وجاء لفظ الإيمان بالفعل المضارع " يؤمنون " ؛ لتكون دعوة متجددة للكفار في كل زمان ومكان ، فباب الله لا يغلق أبدًا ، وباب الإسلام مفتوح دائمًا لكل من أنعم الله عليه ، وهنا يسدل ستار إثبات القدرة المطلقة لله بذلك الالتفات الرائع ، وهذا الطباق البديع ؛ إذ جاء آخر الآية مطابقًا

---

(١) البحر المحيط جـ٧ ص ٤٢٥ لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان ،دار الفكر .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لأولها فينتهي مشهد الإقناع ليتقابل مع ذلك الإمتاع ؛ إمتاع النفس بالإيمان الذي هو الهدف الأسمى والمطلب الأقصى لكل ما سبق .

ولننظر إلى الختام ، ونتأمل ما أحدثه الاستفهام من شدة التئام ، وقوة التحام ، وروعة إحكام .

فالآية بدأت باستفهام ، وختمت باستفهام ، وتوسط ذلك خبران و، كأنه بتلك البداية وذلك الختام قد سد الباب على أولئك الكافرين الجاحدين ، وأغلقه عليهم ولم يدع لهم مخرجًا يخرجون منه ، ففتح لهم في أول الآية الباب للتفكر ، ثم أغلقه في نهايته ؛ إذ وصل بهم إلى قمة الإقناع فـــــ لا إله إلا الله .

وبعد أن طوفتُ في هذه الآية تطواف الطائر القصير الأجنحة أمام أشرعة ذلك الكتاب المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أتوجه إلى علماء المسلمين الذي يسعون إلى معرفة حقائق هذا الكون أن يتأملوا في القرآن ويتفكروا فيه ، وليشرقوا في آفاقه ؛ لينهلوا من بحوره الفياضة وبحوثه المترامية ومعارفه صانعة الحضارة .

وإلى علماء البلاغة أن يغوصوا في درره ، ويصلوا إلى أعماق صوره ، ويبلغوا غاياته وأهدافه .

وإلى علماء الغرب أن يراجعوا أنفسهم في تسميتهم تلك الظاهرة بـــ " الانفجار الكبير " فمصطلحهم لا يرقى إلى العلمية في شيء ، ولا يجلي لنا بوضوح حقائق هذا النظام في أدق جزئياته بنظامها المحكم ، والتي فتقت من رتق بعناصرها المودعة بإحكام لتشكل السموات والأرض ، وتظهر الحياة على الأرض في مرحلة من مراحل خلق الكون والتي ذكرها القرآن الكريم بكل مراحلها في إشارات باهرة ومحكمة ؛ إذ قد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عجزوا عن تحديد معالمها اللانهائية ، وتركيبها النووي بكل أسراره ، فالانفجار كما هو معروف ينشأ عنه فوضى وهمجية وتبعثر وتلاشي ؛ إذ يلقي المادة ويفرقها وأنى له أن يجمعها ويراكمها مع بعضها البعض في شكل مجرات بهذه الدقة الفائقة ، وأنى له أن يصل إلى التعبير القرآني الدقيق لهذه العملية ؛ إذ سماها فتقًا بعدما كانت رتقًا ففتق الثوب لا يكون إلا بشكل دقيق موجه ، وليس بشكل عشوائي .

وخلاصة القول : إن حقيقة الفتق والرتق علمها كامل وشامل ، وهي البداية في النشأة الكونية ، وفصولها المتتابعة بعلم الله تعالى العليم الخبير ..

ونختم هذه الآية بما ختم به الفلكي الأمريكي هيوج روس Hug ross,ph. مقالته (تصميم ومبدأ الأنتروبي) desgn and the Anthropic principle " لا بد أن هناك خالقًا عبقريًا متعاليًا فائقًا ، ووراء نطاق الخبرة البشرية هو الذي أتى بالكون إلى الوجود ، وهو الخالق الذي خلق الكون ، وهو الخالق البديع المتعال الذي خلق كوكب الأرض ، وهو الذي خلق الحياة فيها " (١)

- (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

الأعراف ٥٤

---

(١) - الكون - تأليف دافيد برجاميني ، مكتبة لايف العلمية - بيروت - ١٩٧١ م ، الكون الراديوي تأليف جي - أس . هي ترجمة عبد الكريم علي بغداد ١٩٩١ م

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- (لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) يس ٤٠

-(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ) الزمر (٥) ؟؟؟

- (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ٣١) النازعات .

- (وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) الغاشية ٢٠

- (وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا) الشمس ٦

التفسير اللغوي :

دحا : الدحو : البسط ، دحا الأرض يدحوها دحوًا : بسطها ، يقال : دحا يدحو ويدحي أي: بسط ووسع ، والدحية : البيضة وأنشد المبرد :

دحاها فلما رآها استوت على الماء أرسى عليها الجبالا[١]

طحا : طحا الله الأرض طحواً ، وضربته ضربة طحا منها أي امتد وضربته فطحوته : مددته على الأرض [٢]

سطح الشيء : بسطه وسواه وسطح الله الأرض سطحاً: بسطها [١]

الصدع : انصدعت الأرض بالنبات وصدعها الله تعالى ، وصدع الشيء يصدعه صدعًا ، وصدعه فانصدع وتصدع : شقه بنصفين[٢]

---

(١) أساس البلاغة للزمخشري صـ ٣٨٥ ط الأولى ١٤١٢هـ١٩٩٢م دار صادر بيروت .

(٢) أساس البلاغة ص 295، لسان العرب صـ٢٠٠٦ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كور : كار العمامة وكورها أي لفها ، وتكوير الليل والنهار : أن يلحق أحدهما بالآخر ، وقيل : تكوير الليل والنهار تغشية كل واحد منهما صاحبه ، وقيل : إدخال كل واحد منهما في صاحبه، والمعاني متقاربة .

الظاهرة علميًا :

لم يعرف الإنسان الشكل الحقيقي للأرض إلا عندما أطلق العلماء الروس القمر الصناعي الأول " سبوتنيك " عام ١٩٥٧م حيث استطاعوا الحصول على صور كاملة لكوكب الأرض بعد أن صورتها الأقمار الصناعية ، وتبين أن الأرض شبه كروية مسطحة (Spheroide Aplati) وليست بالكروية تمامًا فبفعل دورانها حول نفسها تنتفخ الأرض بصورة بطيئة جدًا عند خط الاستواء وتتسطح في منطقة القطبين [٣].

وحقيقة شكل الأرض شبه الكروي لم تعرف حسابيًا إلا مع العالم (نيوتن) في القرن السابع عشر ١٦٨٧م الذي وجد أن قطر الأرض عند خط الاستواء يزيد بنسبة ٢٣١/١ عن قطرها بين القطبين الشمالي والجنوبي[٤] .

بلاغة الآيات القرآنية :

---

(١) أساس البلاغة صـ٣٥٠ ، لسان العرب صـ٢٤١٤ .

(٢) أساس البلاغة صـ ٥٥٣ ، لسان العرب صـ٣٩٥٣ .

(٣) طول قطر الأرض عند خط الاستواء يساوي ١٢٧٥٦ كيلو مترًا ، وقطرها بين القطبين يساوي ١٢٧١٣ كيلو مترًا ، والفارق ضئيل بين قطري الأرض (٤٣ كيلو مترًا) جعلها تبدو كروية الشكل إلا أنها في الحقيقة شبه كروية .

(٤) من علوم الأرض القرآنية صـ٢٠ ، كوكب الأرض منشورات تايم لايف ، أمستردام la planet tereles voclans timlife,amsterdam

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أشار القرآن الكريم في هذه الآيات البينات بصورة قاطعة إلى شكل الأرض ، ذلك الشكل البيضاوي المسطح .

وهو بذلك له السبق العلمي في تحديد شكل الأرض ، وهنا تكمن المعجزة العلمية الربانية وهي من الأدلة القاطعة بأنه كلام رب العالمين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إنه حكيم عليم ، أما المعجزة البلاغية فتكمن في دقة دلالة الألفاظ على المعاني وانتقائها بعناية بالغة مما أدى إلى سلامة المعنى وقوة البناء ، وإحكام التركيب ؛ إذ سلامة الكل تتبع سلامة الجزء ، ودراسة أي نص قرآني تتطلب الوقوف عند لبناته الأولى التي هي المفردات لتبين مدى الإصابة في اختيارها ومدى تمكنها في موضعها من جملتها ، ولنتأمل في قوله " طحاها " " دحاها " " سطحت " " يكور " " ولا الليل سابق النهار " " يغشي " .

كلها إشارات مجملة موحية بحقيقة الأرض ، وهي إشارات توحي بحقيقة التدبير والتقدير في صنع هذا الكون واستبعاد المصادفة والجزاف استبعاداً تنطق به دقة الطبيعة ، وتكشف عنه المشاهدة العينية لكروية الأرض من الفضاء الخارجي ، ففي قوله تعالى " دحاها " تصوير لشكل الأرض ، وأنه بيضاوي كالبيضة ، فالدحية البيضة وهو أدق ما توصف به الأرض ، وفي قوله " طحاها " : رسم آخر لشكل الأرض وهو الانبساط والامتداد مع ما يحمله من معنى التكوير ، أما في قوله : "سطحت " فإلى جانب ما يحمله من معنى التكوير فإنه يشير إلى نعمة الله على عباده بجعله الأرض على هذه الهيئة من التمهيد والتسوية والتوطيد " حسبما يقتضيه صلاح أمور ما عليها من الخلائق " [١].

---

(١) فتح القدير للشوكاني جـ ٥ ، صـ١٥١ دار الفكر بيروت .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكلها حقائق قائمة ثابتة " تتوقف على وجودها حياة الجنس البشري وسائر الأجناس الحية ، وهذه الخصائص والموافقات التي جعلتها يد الله في هذه الأرض هي التي سمحت بالحياة فيها وفق تقديره وتدبيره ، وحسب الظاهر لنا أنه لو اختلت إحداها ما أمكن أن تنشأ الحياة ولا أن تسير في هذا الطريق الذي سارت فيه ... وطحو الأرض أو دحوها هو أكبر هذه الخصائص والموافقات ، ويد الله وحدها هي التي تولت هذا الأمر ، فحين يذكر هنا بطحو الأرض ، فإنما يذكر بهذه اليد التي وراءه ، ويلمس القلب البشري هذه اللمسة للتدبر والذكرى" (١).

والسؤال :

لم آثر كلمة دحاها في سورة النازعات ؟ وكلمة طحاها في سورة الشمس ؟ مع أنها هي في وزنها وفاصلتها وكان من الممكن المبادلة بينهما .

لننظر كيف وردت هاتان الصورتان ، لقد وردتا في سياقين مختلفين على هذا النحو : وردت دحاها في هذا السياق : " ءأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٣) " النازعات .

ووردت " طحاها " في هذا السياق : " وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا " الشمس .

وعند التأمل السريع في هذين السياقين يتبين وجه التناسق في " دحاها " و " طحاها " أن الجو في السياق الأول جو وصف دقيق في غاية الدقة

(١) في ظلال القرآن سيد قطب المجلد ٦ ص ٥٩٠ دار الشروق .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

للسماء والأرض ؛ فناسب ذلك دحاها ؛ لأنها أفادت مع الانبساط والامتداد التصريح بالشكل شبه البيضاوي للأرض وهو الشكل الحقيقي لها مما يتسق معه تصوير الأرض بقوله " دحاها " مع ما فيها من ملاءمة صوتية مع ما قبلها " ضحاها " فلو أنه قال " طحاها " مع " ضحاها " لكان هناك ثقلاً واضحًا ناشئًا عن قرب مخارج الحروف ؛ أعني الطاء مع الضاد ، فإن أساس تجاور الحروف إنما هو عائد إلى المخارج بالدرجة الأولى ، فالحروف أثقل على اللسان كلما تقاربت مخارجها ، وتكون أخف إذا تباعدت " لأنك إذا استعملت اللسان في حروف الحلق دون حروف الذلاقة ، ودون حروف الفم كلفته جرسًا واحدًا ، وحركات مختلفة"(١).

وإن الجو في السياق الثاني هو جو العرض السريع لمخلوقات الله ، يتسق معه تصوير الأرض بقوله "طحاها" مع ما فيها من عدم الثقل في النطق ، صحيح أنه يوجد كلمة " ضحاها " في نفس السياق ، لكن يوجد فاصل زمني أطول بين الكلمتين مما تلاشى معه الثقل ، وهذا الوزن من التناسق يربو كل تقدير ، ويسمو على كل تفكير ، والدحو والطحو يتحدان في المعنى العام ؛ إذ هو الانبساط والامتداد ، ولو كان المقصود هو مجرد أداء المعنى الذهني لما كانت هناك ضرورة لهذا التنويع ، ولكن التعبير القرآني لا يرمي إلى مجرد أداء المعنى الذهني ، إنما يريد الصورة كذلك ، والصورة تقتضي هذا التنويع ؛ ليتم التناسق مع الأجزاء الأخرى في اللوحة ، (ودلالة هذا التنويع حاسمة في أن " التصوير

---

(١) المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي جـ١ صـ١٩٢ ، مكتبة دار التراث ط الثالثة .

عنصر أساسي في أسلوب القرآن ، وأن التعبير لا ينتهي إلى أداء المعنى الذهني مجردًا ، وإنما ينبض بطبيعته بصور حية للمعاني تختلف هذه الاختلافات الدقيقة اللطيفة حسب اختلاف الأجزاء والألوان)[١] .

(ولكن القرآن لا يستخدم في التصوير هذه اللمسات الدقيقة وحدها ، إنما يستخدم كذلك اللمسات العريضة ، هذه اللمسات العريضة قد تجمع بين السماء والأرض في نظام ، وبين مشاهد الطبيعة ومشاهد الحياة في سياق ، حيث تتسع رقعة الصورة لهذا كله على أساس من الوحدة الكبيرة بدل الوحدة الصغيرة ومن ذلك " أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) " . الغاشية .

فهذه ريشة تجمع بين السماء والأرض والجبال والجمال في مشهد واحد حدوده تلك الآفاق الوسيعة من الحياة والطبيعة ، والملحوظ هنا هو " الضخامة " وما تلقيه في الحس من استهوال ، والأجزاء موزعة بين الاتجاه الأفقي في السماء المرفوعة والأرض المبسوطة والاتجاه الرأسي بينهما في الجبال المنصوبة والإبل الصاعدة السنام ، وهذه دقة تأخذها عين المصور المبدع في الأشكال والأحجام .

ومما يلاحظ هنا بعين المصور كذلك أن لوحة طبيعية قاعدتها السماء والأرض لا يبرز فيها من الجماد إلا الجبال ، ولا يبرز فيها من الأحياء إلا الجمال ، أو ما هو في حجم الجمال ، والجمل هو الحيوان المناسب ؛ لأنه أليف الصحراء الفسيحة التي تحدها السماء والجبال !!)[٢] .

---

(١) التصوير الفني في القرآن ص ١٠٠ ، دار الشروق .

(٢) التصوير الفني ص ١٠٣ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتجمع هذه الآيات الأربعة القصار أطراف بيئة العربي المخاطب بهذا القرآن أول مرة ، كما تضم أطراف الخلائق البارزة في الكون كله حين تتضمن السماء والأرض والجبال والجمال " ممثلة لسائر الحيوان " على مزية خاصة بالإبل في خلقها بصفة عامة وفي قيمتها للعربي بصفة خاصة [١] .

فنبه البدوي على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذي هو راكب عليه والسماء التي فوق رأسه ، والجبل الذي تجاهه ، والأرض التي تحته على قدرة خالق ذلك وصانعه [٢] .

كل ما ذكرنا من هذه البيئة البدوية يناسبه لفظ السطح الذي يكفي لاستيعاب كل هذه الأشياء ، وإذا لاحظنا حركات هذه الكلمة لوجدنا عجبًا عُجابًا ؛ وهو أنها قد شكلت بكل أنواع الحركات (سُطِحَتْ) ؛ لتشمل كل أنواع الحركات والأشكال والمخلوقات على الأرض ؛ ذلك الرفع الذي يناسب كرويتها ، وعظمها ورفع السماء والجبال وارتفاع الإنسان على جميع المخلوقات ، والكسر الذي يناسب جميع المخلوقات عدا الإنسان ، والفتح الذي يناسب انبساطها وتسطحها ، والسكون الذي يدل على استقرار كل المخلوقات في ملكوت الله ، فهو الرب العظيم الخالق المالك المتصرف الذي لا يستحق العبادة سواه .

(لاجرم أن المعنى الواحد يعبر عنه بألفاظ لا يجزي واحد منها في موضعه عن الآخر إن أريد شرط الفصاحة ؛ لأن لكل لفظ صوتاً ربما أشبه موقعه من الكلام أو من طبيعة المعنى الذي هو فيه والذي تساق له

---

(١) في ظلال القرآن ص ٥٦٣ ، المجلد الخامس

(٢) ابن كثير ص ٢٧٧ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجملة ، وربما اختلف وكان بغير ذلك أشبه) [١] ، وكل هذه أوصاف دقيقة لشكل الأرض ، ورد على من قال :

إن هناك تعارضًا في آيات القرآن ؛ إذ كيف وصفت بأنها كروية ثم توصف بكونها مسطحة أو منبسطة ونقول لهم :

إن هذه المعاني العديدة للأرض لا تنافي كرويتها ؛ بل تشير بوضوح جلي إلى الشكل الحقيقي للأرض وهو ثبوت الكروية هنا .

(فكل قطعة في الأرض ممدودة على حدتها ، وإنما التكوير لجملة الأرض)[٢] ؛ إذ لعظمتها وكبر حجمها ترى كالسطح المستو ، يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله :

(إن الإنسان يرى الأرض مبسوطة أمامه ، سواء أكان في القطب الشمالي أم في القطب الجنوبي أم في المنطقة الاستوائية ، وهذا لا يمكن أن يحدث بهذه الصورة إلا إذا كانت الأرض كروية ، فلو أن الأرض كانت غير ذلك : مربعة أو مثلثة أو أي شكل هندسي آخر كان لابد للإنسان أن يشاهد حواف الأرض عند أطرافها)[٣] ، فسبحانك يا الله ما أبلغ قرآنك الذي قد سبق العلم الحديث في تحديد شكل الأرض بدقة متناهية .

هذا القرآن الذي نزل على قوم لم يعرفوا شيئًا عن الفلك ولا الهندسة ؛ بل كانوا بدوًا رحلاً ، ومع ذلك جاء القرآن مخاطبًا لهم بلغتهم ، ثم انظر

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية مصطفى صادق الرافعي ص ١٨٥ المكتبة العصرية – بيروت ١٤٢٤هـ٢٠٠٤م .

(٢) التسهيل في علوم التنزيل لمحمد بن جزي الكلبي أبو القاسم ، دار الكتب العلمية ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م ، ١٣٠/٢ .

(٣) حديث تلفزيوني للشيخ الشعراوي .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى لفظة " سخر " إنها : لفظة موحية بالقوة والعظمة من خلال ظلالها وبنيتها ؛ إذ جاءت بلفظ الماضي المضعف ، فهي كبيرة في مدلولها قوية في بنيتها ؛ ذلك لأنها بجانب الحديث عن آيتين كبيرتين عظيمتين ، هما : الشمس والقمر فاختير التعبير بها على غيرها مما يؤدي معني " التسخير " (كأمر) أو (جعل) أو (ذلل) ؛ لأن الآية هنا ترسم مشهدًا عظيمًا فيه منافع جليلة لعموم المخلوقات ، ومثل هذه المنافع مجتمعة تقصر في أدائها لفظة (أمر) أو (جعل) أو (ذلل)[1] .

ثم تأمل لفظة " يغشي " كيف لاءمت موقعها ؛ إذ جاءت بجانب لفظة " الليل " ؛ لما توحي به حروفها من معنى للظلمة ، فهي غشاء ساتر لضوء النهار ، ثم إيثار لفظ " خلق " على " رفع " أو " بنى " مع أنه في آيات أخرى قد استخدم اللفظتين الأخيرتين إلا أن كل واحدة من هذه الثلاث جاءت الأليق في سياقها ، ففي هذه الآية التي معنا أراد أن يبين الحقيقة مجردة وهذا ما يناسب " خلق " ، أما " رفع " في قوله تعالى : " اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ... " الرعد ٢ .

فهي تكمل الصورة العجيبة التي رسمتها الآية لمشهد العلو والارتفاع ، فالسياق كان له أبعد الأثر في تخير هذه الألفاظ على النحو الذي قلناه ، فالألفاظ في حد ذاتها غاية في السمو ، وازداد رونقها وجمالها بنظمها في التركيب الجملي الذي اقتضاها دون غيرها .

إنها معان إلهية تحملها ألفاظ إلهية في منظومة إعجازية تكتمل بذلك الاستواء المطلق الذي يليق بعظمة الله وجلاله ذلك الإطلاق الدال عليه

---

(١) النظم القرآني في سورة الرعد ص٧٠ تأليف محمد بن سعد الدبل عالم الكتب ١٩٧٨ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حرف الألف في نهاية كلمة استوى ، ثم توالي فتحاتها ، إنه انطلاق لا يعرف حدًا .

ثم ذلك السكون المستقر على حرف السين الذي يرسم الاستقرار ، فهو استواء مستقر ، يكمله ويتممه قرب مخارج الحروف في هذه الكلمة ، فالسين والتاء في لفظة " استوى " من أول الفم ومن طرف اللسان مما أدى إلى راحة الأداء الذي انعكس على معنى تلك الكلمة ، إنه استواء بلا تعب ولا نزاع !! استواء لا يستطيعه كائن من كان ، استواء مزيد في مغناه ؛ إذ زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ، فاستوى افتعل ماض ثلاثي مزيد بحرفين بينهما الفاء ، والزيادة فيه للمبالغة في الفعل وكونه ليس في مقدور أحد ، إنه تنزيه كامل ، وتجريد مطلق ، وبهذه الطريقة المفضلة في انتقاء الألفاظ للتعبير عن المعاني سار الأسلوب القرآني في أخص شأن ، وأبلغ مقام وأفصح كلام ، ثم يرقى بنا إلى لون آخر من ألوان التناسق ، ذاك التناسق الذي يدق ليشمل الحروف ، فتأمل لم اختار " على " دون " فوق " في قوله " استوى على العرش " لتتناسب ألفها مع ألف (استوى) ، فيكملا ذلك الإطلاق اللامحدود .

إن على تفيد علو السلطة والقدرة والمكانة والشأن والعظمة وليس علو المكان ، وهذا أبلغ وأشرف من مجرد كونه فوق قال الإمام عبد القاهر التميمي : " إن الله خلق العرش إظهارًا لقدرته لا مكانا لذاته ، وقد كان ولا مكان ، وهو الآن على ما كان"[١] .

---

(١) الفرق بين الفرق للإمام عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي التميمي ٣٥٠،٤٢٩هـ دراسة وتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، الناشر: المكتبة العصرية – بيروت ١٤١٦هـ١٩٩٥م .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قال الإمام القاسم الرسي في رسائله : وكذلك تقول العرب فيمن ملك بلدًا ، وغلب ملكه فيه : إنه قد استوى عليه ، إذ ملك وغلب فيه.(١) ، ثم إيثار لفظ " ما " على " من " في قوله " والأرض وما طحاها " (لإرادة مضى الوصفية ، كأنه قال والأرض والقادر العظيم الذي طحاها)(٢) ، إنه قسم عظيم يتناسب مع كونٍ عظيم ، وتمعن " ثم" في قوله : " ثم استوى على العرش" فهي دالة على التراخي ، وفي هذا دلالة على عظم استوائه على عرشه تعالى ، وعلو رتبته ، يقول البقاعي : " ولما كان تدبير الخلق أمرًا باهرًا لا تسعه العقول ، ولهذا كانت قريش تقول : كيف يسع الخلق إله واحد ؟!! أشار إلى عظمته وعلو رتبته بأداة البعد ، فقال : ثم استوى على العرش ، أي : أخذ في التدبير لما أوجده وأحدث خلقه أخذًا مستوفيًا مستقصيًا مستقلاً به ؛ لأن هذا شأن من يملك ملكا ويأخذ في تدبيره وإظهار أنه لا منازع له في شيء منه" (٣)

وتأمل بلاغة الواو في قوله : (يُكوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ) الزمر ٥ ، تللك البلاغة الناشئة عن دقة التعبير ، فلم يقل ثم يكور الليل على النهار ؛ لأنه أراد مطلق الجمع ؛ إذ الليل والنهار موجودان على الأرض الكروية ، نصفها ليل ونصفها نهار ، فالليل والنهار يكوران

---

(١) مجموع رسائل الإمام القاسم الرسي للإمام محمد بن القاسم الرسي ولد ما بين سنة ١٩٨٢٠٢هـ .

(٢) الكشاف جـ٤ ص ٢٥٨

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لإمام برهان الدين البقاعي دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٥ هـ ، ١٩٩٥ م تحقيق عبد الرازق غالب المهدي جـ٣ صـ ٤١

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على بعضهما فوق سطح كروي وهو الأرض ، ثم تكرر حرف العطف الواو لما أراد تعداد النعم والجمع بينهما وتواليها على الإنسان عندما قال (وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ) الأعراف : ٥٤ ، وعندما قال (وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) الرعد : ٢ ، ولما أراد ترتيب الأحداث أتى بـ (ثم) ، وهنا حركة عجيبة في الانتقال من الماضي في قوله (خلق) (استوى) الذي يدل على زيادة التقرير والتأكيد إلى المضارع في قوله : (يغشي) (يطلبه) تلك الحركة التي أحيت المشهد ، وحركته ، وجعلته متجددًا ، وكم في هذا الانتقال من إتقان فني بارز يزيد وضوحًا إذا استمررت على التعبير بالماضي ، ورأيت كم كانت الصورة تنقص لو قيل : إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوي علي العرش غشي الليل النهار طلبه حثيثاً ...

إن فيها إماتة للصورة ، وخموداً للمشهد ، ووقوفًا للحركة ، وأين ذلك من قوله (يغشي) الذي يصور حالات البشر المتجددة ، فآية الليل وآية النهار آيتان كبيرتان ، في أحدهما طلب المعاش ، وفي الأخرى طلب الراحة والدعة والسكون ، فالكيفية البشرية فيهما متجددة نشيطة مستمرة ، والحركة دائمة ، إن صيغة المضارع تجدد هذا الطلب كل يوم ؛ فيحضر بحركته وإغشائه في الأذهان ، فتتحرك لتأمل تلك الحركة الحثيثة .

ولتتصور الحركة في قوله : " يطلبه "

تصور هذا النهار كائنًا من ضياء منبعث من الشمس يملأ الفضاء والجو في كل الجهات ، والليل كائن آخر لا ضوء فيه إلا بصيص الشهب ، يلاحق النهار بسرعة والنهار يلاحقه ، هذا يجري وذاك يطلبه دون

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

توقف ، ثم أطلق لنفسك العنان في الخيال إلى أين يجريان ؟ وكيف ؟ هل يجريان في طريق مستقيمة طرفها اللانهاية ، لو كان ذلك لما مرّ على الأرض إلا نهار واحد يلحقه ليل واحد وانتهى الأمر ، لكننا نراهما متعاقبين ، والنهار يطلع كل يوم من نفس الجهة التي طلع منها في اليوم السابق وتسير شمسه ؛ لتغيب في نفس الجهة التي غربت فيها بالأمس .

إنه تجسيد للمعاني المجردة ، وإبرازها في صورة محسوسة ، وإن لم يكن هناك مجاز أو استعارة أو كناية .

إنه لا يخاطب العقل وحده على نحو ما نعلم من طبيعة سائر أنواع الكلام ، ولكنه يخاطب كلاً من العقل والخيال والشعور معا ، فيحمل إلى العقل معنى ، ويبعث في المشاعر والخيال إحساسا ، إنه نسق مطرد في القرآن ، وطريقة متبعة ، وسبيل عرفت به وعرف بها .

ثم انظر أيضا إلى هذا التنقل البديع من الماضي في قوله : (خلق السماوات والأرض بالحق) إلى المضارع في قوله : (يكوّر الليل على النهار ويكوّر النهار على الليل) ، ثم الرجوع مرة أخرى إلى الماضي في قوله : (وسخّر الشمس والقمر) الزمر ٥

إنه نمط رائع يستثير الفكر ، ويجدد النشاط ، ويبعث على التأمل المفضي إلى الاعتراف بعظمة الخالق ؛ إذ فيه مخاطبة للعقل مع الخيال .

ثم تأمل تلك المقابلة المتحركة المتتابعة بين غشيان الليل النهار ، وغشيان النهار الليل ، وطلب كل منهما الحثيث للآخر ، وتكامل الخلق خلال تلك الحركة ، ثم انطواء كل هذا بين طباق السموات والأرض ، ثم تمعن الرجوع إلى نسق المخلوقات : (والشمس والقمر والنجوم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ) الأعراف ٥٤ ، وتساءل لم ذكرها الله بعد ذكر استوائه على العرش ؟؟؟!! لما أخبر جل شأنه العباد باستوائه ؟

أخبر عن استمرار أمور المخلوقات على وفق مشيئته ، وأراهم ذلك فيما يشاهدونه ؛ لينضم العيان إلى الخبر ، وتزول الشبهة من كل الجهات" (١)

ثم إن هناك نوع بلاغة آخر في هذه الآيات لا تستطيع أن تجدها في غير القرآن الكريم ، وهي أن معانيها مصنوعة ليخاطب بها الناس كلهم على اختلاف مداركهم وثقافاتهم وعلى تباعد أزمنتهم وبلدانهم ، ومع تطور علومهم واكتشافاتهم .

فالآيات تتماشى مع العقلية البدوية ، مع العربي الذي لا يعلم عن الأرض وهيئتها إلا الشكل الذي يراه ، وهو الامتداد والانبساط ، وهذا يفهم من قوله : " دحاها " " طحاها " " سطحت " ، وهو فهم صحيح تدل عليه تلك الكلمات بمعناها اللغوي القريب .

ثم جاءت صفة التكوير لكل من الليل والنهار بإشارة دقيقة إلى كروية الأرض ،وإذا تكور أحدهما على الآخر كان ذلك إشارة أخرى إلى تبادلهما ، وهي تحمل إشارة ضمنية إلى دوران الأرض حول محورها دون أن يثير الأمر انزعاجاً أو دهشة أو بلبلة في زمن لم تسد فيه الثقافة العلمية.

ثم يقرأ في هذه الآيات العالم المتخصص في علم الجيولوجيا ، فيفهم منها معنى الاستدارة والتكوير ، وهو أيضاً فهم صحيح تدل عليه الآيات ، وهو أدق ما توصف به الأرض ، ثم نرقى إلى أفق آخر من آفاق

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لشهاب الدين محمود الآلوسي إدارة الطباعة المنيرية القاهرة جـ٨ صـ١٣٧

البلاغة في هذه الآيات وهو التكرار ، والتكرار جاء نوعًا من أنواع الإعجاز ، ولونًا من ألوان البلاغة ، ووجهًا من وجوه الإبداع ، ذلك أن الكلام الذي يتكرر يثقل ويمل ، أما التكرار الوارد في هذه الآيات فإنه كان نغمًا جديدًا تنقطع دون بلوغه أنفاس البلغاء ، ويقصر عنه أرباب الفصاحة والبيان ؛ إذ اختلفت طرق الأداء ، وأصل المعنى واحد ؛ لبسط القضية ، وتثبيت النظرية ؛ لتكون الحقيقة جلية فتصبح حجة للبرية ، ومن ذلك أن القرآن أشار بصور مختلفة إلى كروية الأرض ، لكنه في كل مرة يعطي معنىً جديدًا زائدًا ، ففي قوله : " وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا " إشارة إلى كروية الأرض ، ثم هو عندما يقول : " يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ " الزمر ٥ يشير أيضًا إلى كروية الأرض مع الدلالة على دورانها حول محورها أمام الشمس ؛ وذلك لأن كلاً من الليل والنهار عبارة عن فترة زمنية تعتري نصف الأرض في تبادل مستمر ، ولو لم تكن الأرض مكورة لما تكور أي منهما وعندما يقول في إيجاز رائع : " يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ " الأعراف ٥٤ ، أي (يذهب ظلام هذا بضياء هذا ، وضياء هذا بظلام هذا ، وكل منهما يطلب الآخر طلبًا حثيثًا ، أي سريعًا لا يتأخر عنه)[١].

هو نفس المعنى في قوله : (وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ) يس : ٤٠ ، أي لا يفوته بوقت يتأخر عنه ؛ بل هو في أثره بلا واسطة بينهما ، ولهذا قال : يطلبه حثيثًا ، فقد أعطانا في هاتين الآيتين الدليل على كروية الأرض ، فمنهما يعرف أن الليل والنهار يجريان في تتابع لا يسبق أحدهما الآخر ، وعليه فإما أن يكون التتابع في خط مستقيم أو في خط دائري ، ولكن لو

---

(١) ابن كثير جـ ٦ ، صـ ٤٥٣ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان التتابع في خط مستقيم على وجه الأرض فإنه لن يحدث إلا ليل واحد ، أو نهار واحد ، إذًا فلابد أن يكون على شكل دائري ، وقد أخبر تعالى بأن الليل لا يسبق النهار ، وهذا المعنى لا يتحقق إلا إذا كان الليل والنهار يوجدان معًا في وقت واحد على الأرض ، وهذا لا يحدث إلا إذا كانت الأرض كروية .

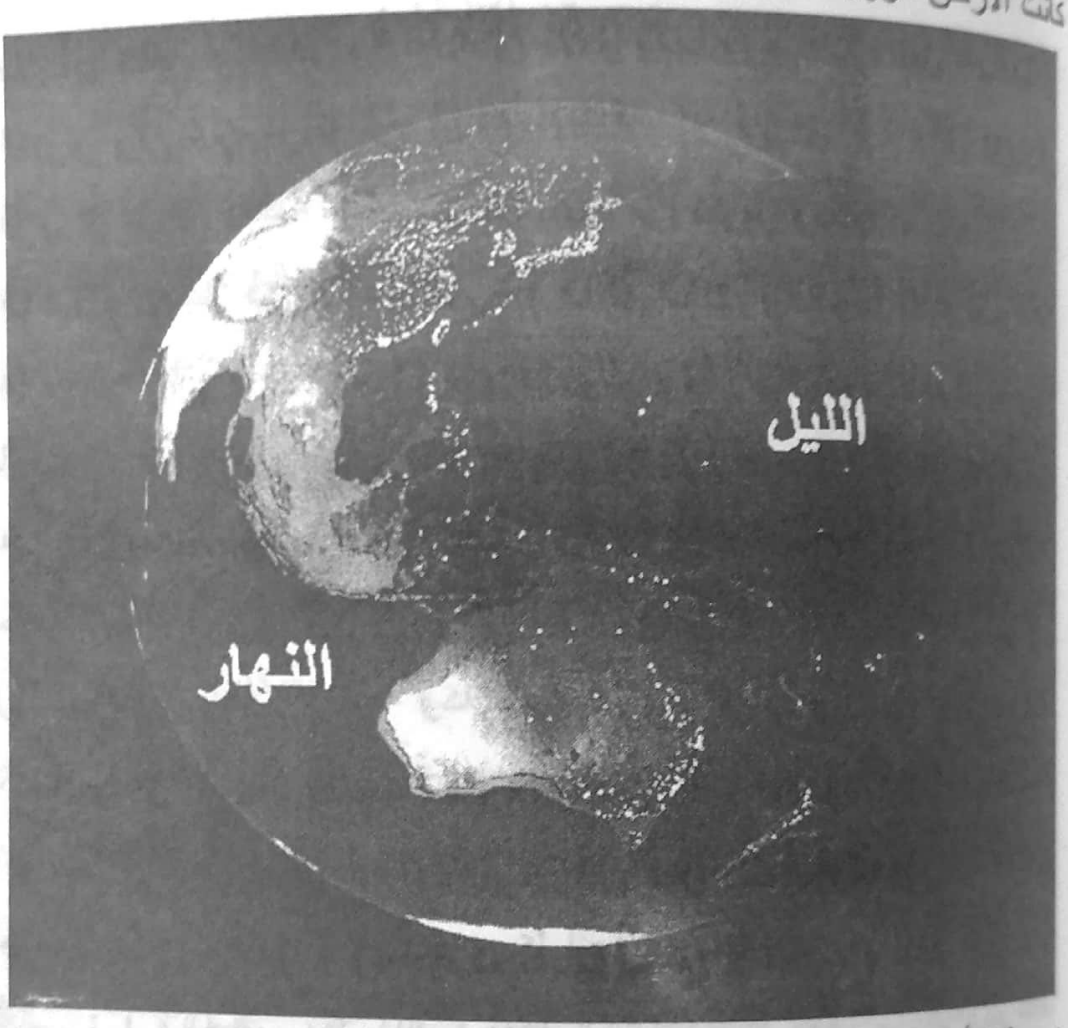

صورة للأرض وتظهر فيها بشكلها الكروي ويظهر الليل والنهار ، يقول تعالى : (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ) الزمر : ٥ ، ونحن اليوم لا نشك في كروية الأرض ؛ لأننا نراها أمامنا بالصور الحقيقية .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفي تكرار هذه الحقيقة العلمية في أكثر من آية تقرير لها ، وهكذا نجد أن خاصية التكرار في القرآن جاءت مميزة له عن غيره ؛ إذ يعرض الحدث الواحد في أكثر من موقع ثم هو في كل موقع يتناول جانبًا مختلفًا ؛ إذ يقدم في كل موقع متطلبات الحدث كما وضحنا .

كما أن هناك سرًّا بلاغيًّا آخر للتكرار مضافًا إلى ما سبق ذكره وهو منع إتيان أي جاحد أو مكابر وادعائه أن الأمر ربما ورد على سبيل الصدفة . والتكرار وإن كان نوعًا من أنواع الإطناب إلا أن كل آية مثال للإيجاز القوي الواضح بألفاظه ، الجازم بما يثبت من تقرير وتأكيد .

وما أروع الإيجاز في قوله تعالى : (أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) الأعراف ٥٤ فهاتان الكلمتان لم تبقيا شأنًا من الشئون ، ولا حالاً من الأحوال ، ولذا قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لما قرأ ها : " من بقي له شيء بعد هذا فليطلبه".

ثم انظر إلى ما فيها من لف ونشر مرتب ؛ إذ هي تلخيص لما نشر في أول الآية ومعناها (إرادته وكلامه) ، وقدم الجار وضمير لفظ الجلالة له وسبق بـ (ألا) للتنبيه على خصوصية هذه الأفعال بالله ربكم الواحد ، وقرنت بألف الجنس أو الاستغراق من أجل ذلك ، وليلحق التخصيص أجناس الخلق والأمر ، ويستغرق كلياتها التي لا تحد ، ولننظر إلى قوله تعالى : (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١)) النازعات ، يقول الجاحظ : (قالت الحكماء إنما تبنى المدائن على الماء والكلأ والمحتطبة ، فجمع بقوله : (أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

النجم والشجر والملح واليقطين والبقل والعشب ، فذكر ما يقوم على ساق وما يتفنن وما يتسطح ، وكل ذلك مرعى "[١]

إنها بلاغة الإيجاز .

" إن آي القرآن قد يدل بالكلمة الواحدة والكلمات المختصرة على معان متعددة يطول شرحها ، وإذا أراد المتكلم العادي التعبير عن المعاني التي أرادها القرآن لم يصل إلى بغيته إلا بلفظ أطول ، وأقل دلالة "[٢] .

وتستمر الآيات في نقلنا من بلاغة إلى أخرى ، فتأتي بالأسلوب الخبري ، وتؤثره على الإنشائي ؛ لتقرر تلك الحقائق العلمية الثابتة حقيقة قدرة الله عز وجل (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) الأعراف ٥٤ ، ثم علوه وعزته وارتفاعه عن الشبيه والنظير (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) الأعراف ٥٤ ، ثم حقيقة الأرض والليل والنهار " يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا " الأعراف ٥٤ ، ثم تسخير الشمس والقمر والنجوم بأمر الله (وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ) الأعراف٥٤ .

وهكذا في باقي الآيات تتوالى الجمل الخبرية اسمية كانت أو فعلية مؤكدة صدق المعلومة ، ومظهرة الحقيقة المجردة ، وناقلة للنظرية الثابتة ، مع ما يصحب هذه الجمل الخبرية من توكيد ونفي ، وما يتبع ذلك من وصف أو تعليل .

لقد تزاحمت عناصر التوكيد لمواجهة إنكار المخاطبين عندما يسمعون هذه الحقائق ، مع أن الأصل أن تكون هذه المعلومات والحقائق ابتداء

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ط لجنة التأليف سنة ١٩٥٠م ، سنة ١٣٦٩هـ تحقيق هارون الرشيد ١٩٣/٢.

(٢) - السابق .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أخبار ، والمعروف أن ابتداء الأخبار لا يحتاج إلى شيء من التوكيد ، لكنها البلاغة القرآنية التي تعرف كيف تتعامل مع المخاطب وتفهم نفسيته وتتوقع ما سيحدث منه من إنكار أو تصديق أو دهشة أو استغراب ثم هي بعد ذلك تعطيه ما يحتاجه من توكيد للحقيقة أو نفي لها لتصل به إلى مرحلة الإقناع ، وهذا ماشهد به الواقع وحكاه التاريخ ، فعلى الرغم من أن كروية الأرض تعد الآن من الحقائق العلمية البديهية التي لا يشك فيها أحد من الناس على اختلاف الأعمار والثقافات حتى صار الصغار يدرسونها في مراحل تعليمهم المبكرة إلا أن هذه الحقيقة واجهت في عصور قديمة صعوبات بالغة حتى تستقر علميًا في أذهان البشر ... وقد يأخذك العجب عندما تعلم أن هيئات دينية كبرى حكمت العقل الأوروبي قرونًا طويلة ضاقت بهذه الحقيقة العلمية ضيقًا حملها على تكفير من يؤمن بها من العلماء ، وربما بلغ الأمر حد التعذيب أو الإعدام بأبشع الأساليب !!! حتى جاء الإسلام بما يحمله من دعوة لتوسيع النظر في الكون ، وتحرير العقل من الأوهام أو الخرافات ، وإطلاق سراح البحث العلمي معتمدًا على التجريب والبرهان ، كما جاء التوكيد لعلة أخرى لا تقل أهمية عن السابقة وهي إماطة الشبهة لغرابة الخبر وحاجته إلى التقرير والتحقيق ، ومن ذلك قوله تعالى : (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) الأعراف ٥٤ ، فالخبر يستدعي الدهشة ؛ لغرابته وصعوبته ؛ إذ كيف للعالم أن يخلق في ستة أيام ؛ ولذا تزايدت أدوات التوكيد في الآية ؛ إن ، وتعريف الطرفين ، والجملة الاسمية ، ووضع الظاهر موضع المضمر في فاصلة الآية (

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تبارك اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) الأعراف ٥٤ ، والتكرار المعنوي في قوله : (أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) الأعراف ٥٤ .

وقوله : (وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا) الشمس : ٦ ، فأكدها بالقسم بالأرض ، وإسمية الجملة ، ثم القسم بالذات العلية ؛ فتكون الجملة صالحة لمواجهة المنكرين في كل زمان ومكان ، دافعة لغرابة الخبر ، مؤكدة ومقررة له ، ثم إن نظم الجمل نفسه يشعر بالتوكيد .

وانظر إلى ذلك الترابط العجيب الغريب بين الآيات ارتباط بعضها ببعض ، لا فرق في ذلك بين ما هو مربوط بأداة لفظية وما هو مربوط برباط معنوي ؛ فقوله (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢)) النازعات ، فيه فصل بين الجملتين لشبه كمال الاتصال ، فكأن هناك سؤالاً مقدرًا كيف دحاها ؟ فكانت الإجابة ذلك التصوير الرائع ؛ أخرج منها ماءها ومرعاها ، فشبه أكل الناس برعي الأغنام ، واستعير الرعي للإنسان بجامع أكل الإنسان والحيوان من النباتات ، فهي استعارة تصريحية لطيفة .

ثم تأمل مثلاً قوله : (يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ) الأعراف ٥٤ ، وارتباطها بما قبلها دون رابط لفظي ، وكأنها جواب لسؤال تقديره : لم استوى على العرش ؟ ثم ارتباطها بجملة (يَطْلُبُهُ حَثِيثًا) الأعراف ٥٤ ؛ لاتحادهما واتفاقهما في المعنى ، ثم ارتباط هذه بما بعدها ، فمعنى الجملة أن الليل والنهار تحت قهره وتسخيره ومشيئته ؛ ولذا جاء بعدها ما يلائمها من قوله تعالى : (وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ) الأعراف ٥٤ ، وارتباط (وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) الرعد ٢ بما قبلها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(فإلى جانب اللمسة الأولى في العلو المطلق تأتي اللمسة الثانية في جانب العلو المنظور ، واللمستان تتجاوران وتتسقان في السياق)[١].

ثم اكتمل هذا التلاؤم بذلك الختام الرائع الذي أحكم بناء الجملة ، وهو قوله تعالى : (ألا له الخلق والأمر) الأعراف ٥٤ أي له الملك والتصرف ، فهو نهاية مناسبة لما قبلها ؛ إذ ما قبلها حديث عن المخلوقات وأمر الله لها بالتسخير ، فهو خلقهم وأمرهم .

وقد بين الإمام الرازي تقسيمات المكونات بين الخلق والأمر حيث يقول: " إن كل ما سوى الله تعالى إما من عالم الخلق ، أو من عالم الأمر ، أما الذي هو من عالم الخلق فالخلق عبارة عن التقدير ، وكل ما كان جسمًا أو جسمانيًّا كان مخصوصًا بمقدار معين ، فكان من عالم الخلق ، وكل ما كان بريئًا من الحجمية والمقدار كان من عالم الأرواح ومن عالم الأمر" [٢]

ثم جاء قوله تعالى:(تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) الأعراف ٥٤ ختاماً رائعاً لما سلف ؛ إذ جاء بنفس ألفاظ فاتحتها (إِنَّ رَبَّكُمُ) الأعراف ٥٤ فهي عائدة على ما سبق وزيادة ، فقد جاء اسما الألوهية والربوبية (إن ربكم الله) مضافاً إليهما (العالمين) وهو أعم من فاتحة الآية التي صيغت بالموصول :(إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض) ؛ لتعم الخاتمة ما سبق في الآية وما يمتد منها وغيره ، وهو كثير مما يظهر ويخفى من العوالم التي لا نهاية لها ، وهكذا ختمت الآية بما افتتحت به لفظاً ومعنى.

---

(١) – في ظلال القرآن – سيد قطب جـ ٥ ص ٧٠.

(٢) التفسير الكبير جـ١٤ صـ١١٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) الأعراف ٥٤ تبارك على ما جاء في أولها وفي وسطها وكل ما لم يذكر فيها مما يدخل تحت عموم لفظ (الْعَالَمِين) ، فالآية كلها مظهر من مظاهر القدرة الإلهية في الأرض والسماء ، ولوحة فنية تعرض عظمة الله في ملكه .

ولذا بدأت الآية بقوله : (إِنَّ رَبَّكُمُ) الأعراف ٥٤ ، (فكلمة الربّ تأتي بصفة المالك والسيّد والمربي والهادي والمرشد والمعلم ، وتأتي عند ذكر فضل الله على الناس جميعاً مؤمنين وغير مؤمنين ، فهو سبحانه المتفضّل عليهم والذي أنشأهم وأوجدهم من عدم وأنعم عليهم) [١] ، وختمت بلفظ الجلالة الله ، فهو اللفظ العامّ لله تعالى ، ويُذكر هذا اللفظ دائما في مقام التخويف الشديد وفي مقام التكليف والتهديد ، فبعد أن ذكر سبحانه وتعالى نعمه عليهم وتسخير الكون لهم ذكّرهم بأنه الله القادر .

واملأ قلبك وعقلك بذلك النفس الطويل العميق في كلمة (تبارك) الذي يتناسب مع عمق وعظمة وجلال خلق الله ، ويتناسب مع النفسية الإنسانية ؛ فالإنسان عندما يطلع على عمل بديع مبهر ، ويحس بقيمته تصيبه الدهشة فيخرج نفسًا عميقًا يدلل به على عمق العجب والغرابة مما رأى.

تبارك : تفاعل ، وهي الكثرة والاتساع ، أو تبارك : تقدس وتنزه وتعالى وتعاظم وارتفع [٢] ، وهي مما يناسب الآية .

---

(١) عن الدكتور فاضل السامرائي من برنامج لمسات بيانية على قناة الشارقة.

(٢) لسان العرب المجلد الأول صـ ٢٦٦

يقول البيضاوي على خاتمة هذه الآية : (تبارك الله رب العالمين) " وتحقيق الآية والله سبحانه وتعالى أعلم ، أن الكفرة كانوا متخذين أرباباً ، فتبين لهم أن المستحق للربوبية واحد ، وهو الله سبحانه وتعالى ؛ لأنه الذي له الخلق والأمر" (١)

ثم هناك جمالاً آخر تنظمه الفواصل ، انظر إلى قوله (العالمين) كانت الفاصلة حرف النون للتمكن من التطريب والترنيم ، فهي صوت الشمول والإعجاز .

يقول الرافعي : " وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلا صورة تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى ، وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقًا عجيبًا يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب ، وتراها أكثر ما تنتهي بالنون والميم ، وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها ، أو بالمد وهو كذلك طبيعي في القرآن" (٢) ، وما زالت سلسلة البلاغة تتوالى ، فهناك بلاغة أخرى بجمال آخر جمال تنظمه الكلمات المتضادة .

الشمس بجانب القمر ، والليل بجوار النهار ، والسماء مع الأرض ، ففيه تناسق ألوان وأجزاء ، وذلك من بدائع التناسق ، فهي موسيقى مكملة للجو يتوصل منها إلى تناسق الإخراج ، ثم ذلك التقديم الرائع للشمس ؛ إذ هي أصل الضياء ، والقمر يستمد ضوءه منها مع ما فيها من تناسق الحروف " سَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ "، فكانت بداية سخر هي حرف السين

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي دار الفكر بيروت .جـ٤ صـ٢٩٢

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية صـ١٧٨ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهو نهاية الشمس ، ونهاية سخر حرف الراء وهو نهاية القمر ، ثم تأمل بلاغة استخدام الأبنية والمشتقات التي لا تقف عند حدود كلمة فحسب ؛ فتفكر في معنى " التسخير " ؛ إذ عبر عنه في الآية الأولى بصيغة اسم المفعول " مسخرات " وفي آية أخرى بالفعل الماضي " سخر "، والسؤال لم أثر في آية لفظ المفعول " مسخرات " وفي الأخرى الفعل " سخر " ؛ لأنه في الأولى لا معنى لإحضار صورة الفعل فيها ؛ إذ أراد إظهار نعمه على عباده وإبراز ضعف هذه المخلوقات أمام القدرة الإلهية ؛ فلذا كان الاسم أليق وأنسب للدلالة على ثبات معنى التسخير لهذه الأشياء للشمس والقمر والنجوم ، فهي صفة لازمة لها لا تنفك عنها ، ففيه ما ليس في الفعل من تمكن الوصف وثباته ، أما في الآية الثانية فأراد الله عز وجل إثبات قدرته ، وأنه خالق كل شيء كما أنه في معرض تعداد نعمه على عباده ، وهذا يلائمه الفعل .

إن لفظة سخر موحية بالقوة والعظمة من خلال ظلالها وبنيتها ؛ إذ جاءت بلفظ الماضي المضعف ، فهي كبيرة في مدلولها ، قوية في بنيتها ؛ ذلك لأنها بجانب الحديث عن آيتين كبيرتين عظيمتين ، هما الشمس والقمر ، فاختير التعبير بهما على غيرهما مما يؤدي معنى" التسخير" كذلل أو جعل أو أمر ؛ لأن الآية هنا ترسم مشهدًا عظيمًا فيه منافع جليلة لعموم المخلوقات ، ومثل هذه المنافع مجتمعة تقصر في أدائها لفظة أمر أو جعل أو ذلل ، فهي لفظة "سيقت للحديث عن نعم كثيرة تفيدها الشمس والقمر مسخرين من عند الله ففي الشمس وطاقاتها الحرارية منافع للإنسان والحيوان والنبات ، وفي القمر زينة الكون وتبصير الناس بضبط المواقيت والحساب ، وفيهما معاً دلالة لمن أراد التفكر في ملكوت الكون

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تدعو إلى الإيمان بخالقه ومبدعه ، وفي الإيمان طمأنينة لنفس المؤمن في الحياة الدنيا وثواب من الله في الحياة الأخرى ، ومن ذا الذي لا يطمع في الحصول على تلك المنافع ؟ ومن ذا الذي ليس بحاجة إلى منافع الشمس والقمر ، تلك المنافع التي لم يف في التعبير عنها لفظ غير صيغة "سخر" (١)

ض

(١) النظم القرآني في سورة الرعد صـ ٧٠

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الثاني

تصدع الأرض وتمددها واهتزازها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ) الطارق ١٤

(وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) الرعد ٣ .

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ) الحجر ١٩

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) ق ٧ .

(وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) الحج ٥ .

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ) . فصلت ٣٩ .

فهم المفسرين لهذه الظاهرة :

(وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ) أي : ذات الطرق التي تصدعها المياه ، وقيل : ذات الحرث ؛ لأنه يصدعها ، وقيل : ذات الأموات ؛ لانصداعها عنهم للنشور[١]

(والأرض ذات الصدع) ، أي تتصدع وتنشق عن النبات والأشجار والأنهار[٢]

---

(١) تفسير القرطبي ص ١١ ، فتح القدير ص٤٢٠

(٢) تفسير البغوي للحسين بن مسعود البغوي أبو محمد ، المحقق محمد عبد الله النمر دار طيبة ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م ص ٤٧٤ ، فتح القدير ص ٤٢٠

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الظاهرة علميًّا :

منذ بداية القرن العشرين بدأ العلماء يلاحظون أن القشرة الأرضية مع الطبقة التي تليها ليست قطعة واحدة ، بل مقسمة إلى ألواح ، وتفصل بين هذه الألواح شقوق تمتد لآلاف الكيلو مترات ، وبدأوا يرسمون الخرائط الخاصة بشبكة الشقوق أو الصدوع والتي توضح هذه الألواح[١].

ولكن الذي يثير العجب أنهم اكتشفوا صدعًا ضخمًا ، فقد اكتشف العلماء صدعًا يمتد لأكثر من ٤٠ ألف كيلو متر ، وأسموه النار Pacific Ring Of Fire هذه الحلقة موجودة في قاع المحيط الهادئ ، وتمتد على طول الساحل الغربي لأمريكا مرورًا بألاسكا ، ثم اليابان والفلبين وإندونيسيا ، ثم جزر المحيط الهادئ الجنوبية الغربية ، ثم نيوزيلندا .

إن هذه الحلقة تمثل أطول صدع في العالم ، وهي من المناطق الأكثر خطورة ، ويعتبرها العلماء ظاهرة جيولوجية غريبة وفريدة من نوعها على سطح الأرض[٢] .

---

(١) -

http://www.ngdc.noaa.gov/mgg/image/crustageposter.jpg

(٢) -

http://www.windows.ucar.edu/tour/link=/earth/interior/plate_tectonics.html

.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ض

نرى في هذه الصورة أكبر صدع في العالم وهذا الصدع يمتد لمسافة ٤٠ ألف كيلو متر، ويحدث فيه معظم زلازل وبراكين العالم ، ومن رحمة الله تعالى أنه جعل هذا الصدع تحت قاع المحيط ، فلا نراه ولا نحس به، ولكن الله تعالى حدثنا عنه ، بل وأقسم بهذه الظاهرة العجيبة فقال: (وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ)

ومن نظرية تصدع الأرض التي قال بها العلماء " بلاسيه " Placet 1658 و " تايلور " Taylor 1910 وخاصة " فغنر " ١٩١٨م والتي اعتمدها أكثر علماء الجيولوجيا في النصف الثاني من القرن العشرين كحقيقة علمية ثابتة ننتقل إلى حقيقة علمية جيولوجية أخرى تكررت الإشارة القرآنية إليها تنبيهاً للباحث على أهميتها ولم يعرفها الإنسان إلا منذ ربع قرن ، إنها حقيقة تمدد الأرض .

ومن هاتين الحقيقتين تصدع الأرض وتمددها انفصلت القطعة الإفريقية عن القطعة الأميركية الجنوبية ونشأ بينهما المحيط الأطلسي الذي لا يزال يتوسع من سنتيمتر واحد إلى خمسة سنتيمترات تقريباً كل سنة ، ومن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تباعد القطعة الإفريقية عن القطعة العربية نشأ البحر الأحمر الذي ما يزال يتمدد ويتوسع حتى اليوم .(١)

كان لابد من هذه المقدمة الجيولوجية لفهم البلاغية القرآنية في هذه الآيات ؛ إذ لا يكفي في القرن العشرين أن نكتفي بتفسير قوله تعالى " والأرض ذات الصدع " على أنها الأرض التي تتشقق عن النبات خاصة في ظل هذه الثورة الجيولوجية وبعد أن طأطأ العلم رأسه خاشعاً أمام مفهوم هذه الآية .

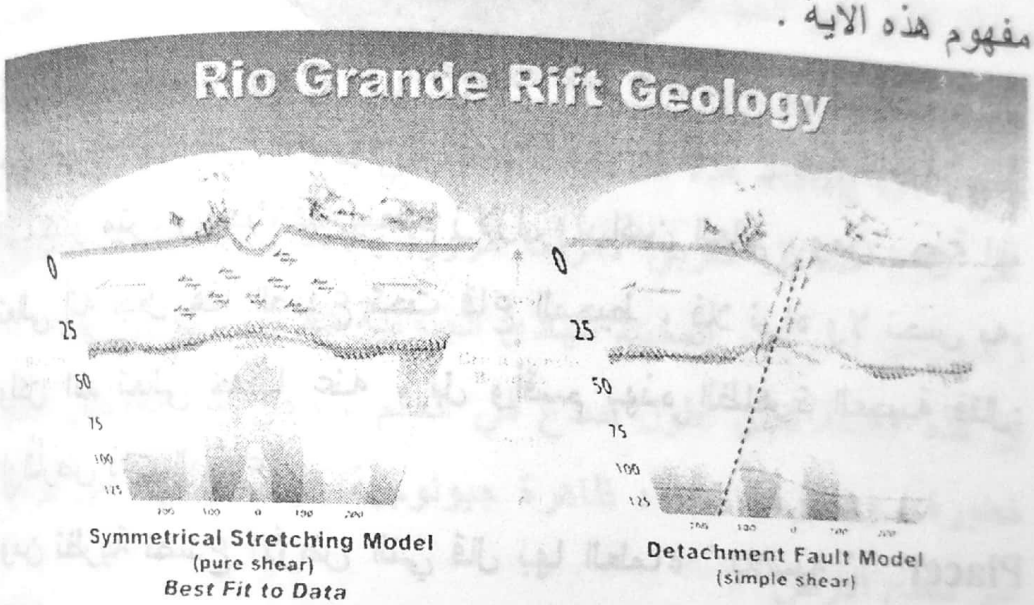

وتظهر الصورة المرسومة بالسوبر كمبيوتر القشرة الأرضية وهي تنقسم إلى لوحين يتباعدان عن بعضهما مما يساهم في تشكيل هذا الصدع الهائل

البلاغة في الآيات :

(والأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ) الطارق ١٢

---

(١) زحف القارات ، مجلة الفيصل العدد٥٢ ، موسوعة كوستو – عالم المحيطات لافون

Encyclopedie Cousteau lemondedes oceans, Robert .laffont

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إنها آية عظيمة يقسم الله فيها بالأرض ذات الصدع ؛ تفخيمًا وتأكيدًا وتقريرًا وتثبيتًا لظاهرة من أروع ظواهر الأرض وأكثرها إبهاراً للعلماء ، وأشدها لزوماً لجعل الأرض كوكبًا صالحًا للحياة والعمران ؛ إذ بدون هذه الظاهرة تتلاشى صلاحيتها لمثل هذا ، فعبر هذه الصدوع العملاقة خرج كل من الغلافين المائي والغازي للأرض ، ولا يزالان يتجددان، وعبر النشاط الملازم لها تحركت ألواح الغلاف الصخري الأولى للأرض فتكونت القارات والسلاسل الجبلية ، والجزر البركانية وتجددت قيعان المحيطات ، وتزحزحت القارات ، وتبادلت اليابسة والمحيطات ، وثارت البراكين لتخرج قدراً من الحرارة الأرضية الحبيسة في داخل الأرض والتي كان من الممكن أن تفجرها لو لم تكن تلك الصدوع العملاقة ، وخرجت كميات هائلة من المعادن والصخور ذات القيمة الاقتصادية مع هذه الثورات البركانية ونشطت ديناميكية الأرض ، وثبتت ألواح غلافها الصخري بالجبال .

فيالعظمة هذا القسم ، ويالجلال المقسم الذي لم يكتف بتأكيد هذه الحقيقة العلمية بالقسم ؛ بل جاء بالجملة الاسمية تأكيداً وتثبيتاً ، ثم أتبع ذلك بكلام حاد قوي ، فالنظم كله يشعرك بالتوكيد ، (إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤)) الطارق .

نعم إنكم أيها الملحدون المشككون بصدق القرآن عندما تكتشفون هذا الصدع ، وتعتبرونه من أهم الظواهر الجيولوجية على سطح الأرض ، وتعترفون بأنه لم يكن لأحد أن يعلم به من قبل ، ثم تجدونه في كتاب الله عز وجل مؤكدًا ، فلا بد لكم أن تقتنعوا بأنه ليس بكلام بشر ، بل أنزله من يعلم السر وأخفى .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لقد جاءت هذه الحقيقة مؤكدة بأكثر من مؤكد لمواجهة إنكار المخاطبين في كل عصر يتكشف فيه العلم عن كل جديد

فسبحانك يا الله !!!!

وتأمل صيغة المصدر هنا " الصدع " ، وإيثاره على غيره من الصيغ كمثل اسم الفاعل (والأرض المتصدعة) أو الفعل " تصدعت " إنه قد أصاب موقعه ، فجاء بتلك المصدرية المباشرة ؛ ليكون الأسلوب الأساسي في الإقناع مع من لا تسمح طبيعتهم بغيره ، ولا ترضى لغتهم بديلاً عنه ، ففيه إثبات حدوث صفة الصدع للأرض .

كما أن ظهور الصدوع العملاقة التي تحيط بالأرض إحاطة كاملة على هيئة صدع واحد تشير إلى الحكمة من القسم القرآني بالأرض ذات الصدع بالمفرد لا ذات الصدوع بالجمع ، حيث اكتشف العلماء في العقود الثلاثة الماضية أن أرضنا محاطة بشبكة هائلة من تلك الصدوع العملاقة التي تحيط بالأرض إحاطة كاملة فمن يرى الصدوع صدعاً واحداً يصدق عليه اللفظ القرآني ، ومن يراها صدوعًا يصدق عليه كذلك ، واللفظ محتمل.

لقد استعار الجيولوجيون كلمة "صدع" ليطلقونه على أحد التراكيب الجيولوجية الشائعة التي تشاهد في الصخور ، وذلك بمفهوم أن الصدع هو شق يحدث للشيء فيشقه إلى جزءين يتحركان بالنسبة لبعضهما ، وتفسير الآية يحتمل هذا المعنى ، فالصدوع ظاهرة جيولوجية شائعة ، وهي من أوائل ما يدرسه طالب الجيولوجي ، وقد يكون امتداد الصدع محدودًا ببضعة أمتار وقد يصل إلى مئات الكيلومترات ، وارتاح الجيولوجيون لهذا التفسير وظنوا أن المفرد في الآية الكريمة يشمل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أيضًا الجمع ، إلا أن التقدم العلمي أظهر الحقيقة المذهلة بأن المفرد في الآية الكريمة القصد منه المفرد فعلاً ، فهناك صدع واحد بالمفهوم الجيولوجي يلف الأرض كلها ولكنه مغمور في وسط المحيط ، ويمكن أن نلقط طرفه عند جزيرة أيسلند في شمال المحيط الأطلنطي وتنطلق معه على طول المحيط في منتصف المسافة بين إفريقيا وأمريكيا ، ثم نعرج معه حول جنوب إفريقيا ؛ لنعبر المحيط الهندي ونصل إلى المحيط الهادي ؛ لندخل تحت قارة أمريكا الشمالية من عند كاليفورنيا ونخرج بعدها من عند ألاسكا !! وهناك فرع من هذا الصدع العظيم يمر بطول البحر الأحمر ليشق خليج العقبة ، ثم وادي الأردن وحتى شمال سوريا ؛ لينتهي في جبال زاجروس ويكون السبب في تكوينها ، وهو أيضًا السبب في زلزال خليج العقبة ؛ بل هذا الصدع وما يحدث عليه من نشاط هو السبب في العمليات الجيولوجية الداخلية التي تظهر لنا في صورة الزلازل والبراكين والصدوع وتزحزح القارات وبناء المحيطات [١].

إن هذه الحقائق الأرضية التي لم تكتشف إلا حديثًا ، هي من آيات الله التي تزيدنا إيمانا ، وتؤكد أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق ، فسبحان الله الحكيم القائل في كتابه الكريم: (وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ) الطارق ١٢

---

(١) - http://www.windows.ucar.edu/tour/link=/earth/images/earths_crust_gif_image.html

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثم ننتقل مع القرآن بعد ذلك إلى حقيقة مد الأرض ، فقد تكررت الإشارة القرآنية إليها أكثر من مرة تنبيهًا للباحثين على أهمية هذه الحقيقة الجيولوجية التي لم يعرفها الإنسان إلا منذ ربع قرن ، فقال تعالى :

(وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) الرعد ٣ .

وقال (وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ) الحجر ١٩

وقال (وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) ق٧ .

لننظر إلى نظم هذه الآيات ، ولنتأمله جيداً ، فإن البناء لا يكون سليمًا قويًا إلا بسلامة الدعائم التي أقيم عليها ، وسلامة اللبنات التي تكون منها .

فالألفاظ (مد) (جعل) (يغشي) (يتفكرون) (ألقينا) (موزون) (بهيج) سهلة في مبناها ، قوية في معناها ، بليغة في مكانها ، دقيقة في وصفها .

لقد آثر القرآن لفظة " مد " في الآيات السابقة على غيرها من المترادفات مثل (بسط) و (وسع) (سوى) ؛ لأن مد الله الأرض يمدها مدًا أي : بسطها وسواها[1] ، فهي تشتمل على كل المعاني السابقة ؛إذ فيها دلالة على البسط من جميع الجهات وأنه لا نهاية له ، حتى إن علماء وكالة

---

(١) لسان العرب المجلد السادس ص ٤١٥٧ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ناسا يستخدمون كلمة Spread أي " مد " أو امتداد وهي الكلمة القرآنية ذاتها ، كما أنها تدل على بعد أقطار الأرض وسعتها ، وقدرة الله على تذليلها لكافة المخلوقات ، ولذلك قال (الأرض) كل الأرض ولم يحدد أرضًا بعينها ، أما بسط أو وسع ، فمعناها اللغوي يفيد التوسعة والبسط ، ولا يدل على أنها من جميع جهاتها ، فقد يترائى للسامع أن البسط أو التوسعة كانا في جهة دون أخرى ، فأرض بساط وبسيطة : منبسطة مستوية ، أي الأرض العريضة الواسعة[١]

أما لفظة (جعل) جعل الشيء يجعله جعلاً : وضعه، وصيره ، وصنعه[٢] فإنها تعطي معنى الإيجاد في أي زمان وأي مكان ، إنها مطلق القدرة الإلهية التي لا يعجزها شيء ، كما أن فيها من الخفة ما فيها ، تلك الخفة والهدوء اللذان يتناسبان مع الجو الملائم للتفكير الذي يدعونا إليه آخر الآية ، ثم انظر إلى ما تعطيه كلمة " كل " من العموم المطلق الذي يتناسب مع الجعل المطلق والمد من جميع الجهات ، إنه عطاء لا حدود له ولا حواجز عنده ثم يستمر العطاء بتكرار فعل (الجعل) مرة أخرى .

ثم تأمل لفظة (يغشي) كيف لاءمت موقعها ، فالتركيب وإن احتمل العكس أيضًا بالحمل على تقديم المفعول الثاني على الأول ، فإن ضوء النهار أيضًا ساتر لظلمة الليل إلا أن الأنسب لليل أن يكون هو الغاشي ؛ لذا جاءت لفظة يغشي بجانب لفظة الليل لما توحي به حروفها من معنى الظلمة ، فهي غشاء ساتر لضوء النهار لهذا قدّم الليل على النهار كما أنه استخدام علمي دقيق ؛ لأن الليل بالفعل يحيط بالضوء من كل جوانبه

---

(١) السابق ، المجلد الأول صـ٢٨٢ .

(٢) السابق المجلد الأول صـ ٦٣٧

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

، بينما نجد أن هذه الكلمة لا تستخدم مع النهار أبدا ، فهو القائل في آية أخرى : (واللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١) والنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢)) الليل ، ولم يقل (والنهار إذا يغشي) ؛ ليدلنا على أن النهار أو الضوء بإيجاز الظلام ويبعده ويأخذ مكانه ، وهذا بالضبط ما يحدث وهو ما أكده العلماء ، فكلمات القرآن دقيقة من الناحية العلمية ، وهذا ما يعجز عنه البشر ، كما أن هذه الكلمة تمتاز بدلالة أخرى وراء حدود اللغة يستقل بها الوزن وجرس الأحرف متآلفة مع بعضها ، فالكلمة تعبر عن ظلام شامل ، ولسنا بحاجة – لفهم هذه الصورة من الكلمة – إلى وساطة لغة أو مراجعة قاموس ، وإنما هو إحساس ينبعث في النفس من طبيعة الكلمة ، ووقع حروفها ، ثم إن هذه الكلمة ترسم للخيال صورة ذلك الغطاء الكثيف الذي يستخدم في تغطية الأشياء الحسية ، فتدع الحس يتأثر عن طريق الخيال بتلك الصورة مما يكسبها حركة وحياة ، ففي قوله : " يغشي " استعارة تبعية تمثيلية ؛ إذ شبه إزالة نور النهار بواسطة ظلمة الليل بتغطية الأشياء الحسية بالأغطية التي تسترها ، ثم تأمل كلمة " ألقينا " في الآيتين الأخيرتين ، إن فيها إعجازًا بلاغيًا ؛ إذ لم تقف عند العموميات التي تقف عند حدودها تعبيراتنا البشرية التي تعاني من العجز ، فامتازت هذه الكلمة بتطابق أتم مع المعنى المراد فمهما استبدلت بها غيرها لم يسد مسدها ولم يغن غناها ، ولم يؤد الصورة التي تؤديها .

لقد قال علماء الجيولوجيا إن تكوين الجبال على سطح الأرض إنما تم بطريقة الإلقاء ، وهذا الإلقاء تم جيولوجيًا عبر العصور ، وهو من أسفل إلى أعلى ؛ حيث لفظت المحيطات والبحار ما بداخلها على مستوى القاع ، وذلك بفعل البراكين أو من أعلى إلى أسفل بفعل مجاري الأنهار

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والترسبات الصخرية أولاً بأول ، وإذا كان الأمر كذلك ، وأن هذه الكلمة دقيقة في وصفها فلم لم يعبر بها في الآية الأولى ؟

نقول إنه أيضًا الإعجاز البلاغي الذي يراعي اللفظة بأجراسها ، ومقاطع حروفها ، والدقة في اختيارها ، ومراعاة توافر الحسن في جميع جزئياتها ، ووضعها في الترتيب المناسب لها بحيث تتلاءم مع سياقها .

إن السياق في الآية الأولى هو سياق إبراز قدرة الله وفضله على عباده ، ودعوتهم للتفكير في آياته ، وهذا مما يناسبه لفظ (جعل) ، فهو الذي جعل لهم هذه الأشياء ؛ لاستقامة حياتهم ، كما أنها تتلاءم مع جعل الثانية وتكرارها لم يحدث خدشًا في تناسق الآية ؛ بل جميع ألفاظها جاءت في تناسق بديع ، أما سياق الآية الثانية ، فهو إبراز لجلال وعظمة الله ، وأنه مالك هذا الكون ، كما أن فيه كشف عن هذه الحقائق العلمية

مما ناسب الكلام عن دقة هذه الظواهر ؛ لذا نجد السياقين في الآيات مختلف ، ففي الآية الأولى قال : (وهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ) الرعد ٣ ، فبدأ عز وجل بذلك الضمير العائد عليه من أجل إبراز قدرته ، ففيه قصر عليه عز وجل أنه هو الذي مد الأرض لا أحد سواه ، وهذا القصر مما يتلاءم ومظاهر القدرة الإلهية ، فهو قصر حقيقي عن طريق تعريف طرفي الإسناد ، فالمسند إليه " هو " الضمير العائد عليه والمسند هو الاسم الموصول (الذي) وفي استخدام الضمير (هو) تمييز كامل للمسند إليه ؛ لإحضاره في ذهن السامع بواسطة الضمير العائد عليه سبحانه ، وفي استخدام الموصول زيادة في تقرير الأمر ، وهو أن الذي مد الأرض وبسطها هو الله سبحانه وتعالى ، كان الإتيان بها جميعًا في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نفس الموضع غاية البلاغة ؛ إذ فيه تأكيد قوي يحسه القارئ ، ويتناسب مع قوة الله وقدرته ، أما سياق الآيتين الثانية والثالثة فهو إثبات حقيقة علمية ومعجزة إلهية ونعمة ربانية فلذا بدأ بقوله :

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ...) الحجر ١٩ تقريرًا لحقيقة الأرض .

كما لعب السياق دورًا أساسيًّا في نهاية الآيتين الأخيرتين ، فختمت الأولى منهما بقوله (موزون) ، وهذا يناسب السياق الذي وردت فيه إذ جاء بعدها قوله : (وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠)) الحجر .

صدقت يا الله ؛ إن الإخلال بنظام أي خلق من مخلوقاتك يؤثر سلبًا على البقية ، ولم يكن باستطاعتنا العيش في هذه الحياة ، وهذا ما بينته مؤخرًا علوم البيئة وما أشرت إليه في قرآنك العظيم فجميع ما في الكون يمثل حلقات مترابطة يتأثر بعضها بالآخر فكلمة موزون : ذات ثقل في مكانها ، فمعناها أن كل نبت في هذه الأرض في خلقه دقة وإحكام وتقدير فهو موزون (بميزان الحكمة ذاتاً وصفة ومقداراً)[١] إلا أن الإنسان أخطر مفسد في الأرض ، والإحصاءات عن تلوث البيئة جوًّا وبحرًا تشهد بذلك ، أما السياق الوارد فيه كلمة بهيج فهو مختلف ؛ إذ يتحدث عن خلق السماء واستوائها وثباتها وتزينها بالنجوم الخنس الجوار الكنس وجمالها وعدم وجود شقوق أو صدوع أو عبث أو فروج بها ، فالمنظر رائع جميل ، وهذا في غاية الحسن والملاحة مما يناسب قوله (بهيج) أي حسن يسر الناظرين ، ويعجب المبصرين ، ثم انظر إلى ذلك الاتساق

---

(١) أبو السعود ص ٧١ ، ص٥ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والتناسق العجيب الغريب في نظم هذه الآيات وترابط معانيها وتسلل نسقها ، واتساق أجزائها .

إذ ذكر عز وجل آية الليل والنهار في قوله : (يغشي الليل النهار) مع الأرض ولم يذكرها مع السماء مع أن تعلقها بالسماء واضح ظاهر ؛ وذلك لأن ظهور الليل والنهار يكون في الأرض ؛ ولأن الليل والنهار لهما تعلق بإنبات الثمرات وإنضاجها .

ثم تأمل في الترتيب الرائع لهذه الآيات فهناك ثلاث مراحل :

امتداد الأرض ، ثم تشكل الجبال ، ثم تشكل الأنهار ، ثم إنبات الثمار ، وهذا مطابق للحقائق اليقينية التي حصل عليها العلماء اليوم ، ولذا جاءت الثلاث جمل الدالة على مد الأرض وجعل الجبال والأنهار ، ثم الإنبات كلها موصولة بحرف العطف الواو إذ جمع بينهما ؛ لاتفاقهما في الخبرية لفظًا ومعنى واتفاق مناسبتها ؛ إذ كلها من فعل الله تعالى ، ولا يخفى ما فيها من ترابط عقلي علمي ؛ فالآية الكريمة تتحدث بدقة علمية تامة عن مراحل الإنبات ، فالرحلة تبدأ بإنزال الماء على هذه الأرض حيث يمتزج هذا الماء بذرات التراب ، لتبدأ هذه الذرات بالاهتزاز المستمر مما ينتج عنه زيادة في حجم التراب وتمدده ، وبعد ذلك تبدأ الحبوب الموجودة في التراب بامتصاص هذا الماء ، وتبدأ بالتمدد أيضًا والنموَ ، وتبدأ عملية الإنبات ، ومن عظمة القرآن أنه لخَّص كل هذه المراحل بثلاث كلمات فقط: (اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ) .

أما قوله : (يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ) فجاءت مفصولة لعدم المناسبة في المعنى .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثم تأمل هذا الحذف البليغ حيث حذف الفاعل في قوله (يغشي) إذ هو معلوم واضح وهو الله عز وجل ، وفي ذكره ركاكة ينأى عنها أسلوب القرآن ، كذلك حذف فاعل الفعل (جعل) للعلم به ، وفي ذكره حشو وتطويل لا فائدة منه .

كما حذف فعل (الأنهار) فجاءت الجبال والأنهار معمولين لفعل واحد وهو (جعل) إشارة إلى أن الجبال منشأ للأنهار وبيان لفائدة أخرى للجبال غير كونها حافظة للأرض عن الاضطراب المخل بثباتها ، ولا يخفى ما في ذلك من الإيجاز البليغ ، وتتوالى سلسلة المحذوفات في هذه الآيات حيث حذف الموصوف وهو الجبال ، والاكتفاء بذكر الصفة (رواسي) لإغناء غلبة الوصف بها عن ذلك ، وعبر بهذه الصفة للجبال ؛ لبيان تفرع قرار الأرض على ثباتها وهو ما يتطابق مع ما أكدته الحقائق الجيولوجية ، وقيل إن قوله تعالى : (وجعل فيها رواسي وأنهارا) الرعد ٣ .

" إن فيه حذف ، والتقدير مياه الأنهار ؛ لأن التمنن بالمياه أكمل من التمنن بأخاديدها ، ولأن القدرة والحكمة في خلق الماء أتم منها في خلق الأخاديد " [١] ، ثم هذا الحذف حذف الصفة في قوله : (لآيات) أي لآيات باهرة ، وهي آثار تلك الأفاعيل البديعة ، وعلى هذا تكون " في " على معناها ، بمعنى أن تلك الآثار مستقرة في تلك الأفاعيل ، وإما أن تكون " في " تجريدية ، وذلك مشار بها إلى تلك الآثار المدلول عليها بتلك الأفاعيل .

---

(١) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز لعبد العزيز عبد السلام ص ١٠٢ ط دار الفكر بدمشق .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثم حذف متعلق (يتفكرون) وهو قوله : (في صنع الله) إيجازاً ، وهو إيجاز بليغ ، ثم انظر لروعة التقديم والتأخير في قوله (وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا) حيث قدم الجار والمجرور (فيها) على المفعول (رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا) لتخصيص الأرض بهما .

ثم انظر إلى بديع التقديم والتأخير في تركيب قوله تعالى : (وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ) الرعد ٣ .

فقدم المتعلقين الجار والمجرور وجملة الإضافة في قوله : (ومن كل الثمرات) على الفعل (جعل) والمفعول به (زوجين) ثم قدم أيضاً المتعلق (فيها) على المفعول به (زوجين) وهذا كله خلاف الأصل ؛ إذ الأصل في غير القرآن أن يقال : (وجعل زوجين اثنين من كل الثمرات فيها)

والبلاغة في ذلك أنه في الأولى تخصيص للثمرات بالزوجين الاثنين ، وتعجيل للمسرة لبني آدم ، وفي الثانية : تشويق للقارئ ، وأنا أدعك أيها القارئ بين هاتين الجملتين بين قوله الله عز وجل : (وجعل فيها من كل زوجين اثنين) ، وبين قولك في غير القرآن : (وجعل زوجين اثنين من كل الثمرات) ، أظنك ستدرك الفرق بين التعبيرين بذوقك وحسك إن لم تدركه بفصاحتك وبلاغتك ولا يمكن أن نقول إلا أنه قرآن رب العالمين ، ثم إن هناك تقديمًا آخر في قوله (وجعل فيها رواسي وأنهارًا) فقدم الجار والمجرور (فيها) على المفعول (رواسي وأنهارًا) لتخصيص الأرض بها .

ولنتأمل التأكيد في قوله (زوجين اثنين) إذ أكد الزوجين بالاثنين ؛ لدفع توهم أنه أريد بالزوج هنا الاثنين ، فالزوج يطلق على الاثنين وعلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الواحد المزاوج للآخر ، فالمراد الفردان اللذان كل منهما زوج للآخر وليس المراد الشفعان ، وإذا نظرنا إلى سياق الآيات وجدناه سياقًا عجيبًا منوعًا بين الإسمية والفعلية والتأكيد وعدمه ، والتنوع بين الماضي والحاضر إنه يتنقل بنا في جميع الأزمنة ومختلف الصيغ .

فما السبب في ذلك ؟

لقد ألف الناس هذه النعم والمخلوقات التي ذكرها الله عز وجل من مد الأرض وتثبيتها بالجبال ، وامتلائها بالأنهار وبثها بالثمرات ؛ ولذا عندما عبر عنها القرآن عبر بالماضي الدال على وقوع الشيء وحدوثه ، أما آية الليل وآية النهار ، فالبشر فيهما متجددون من حال إلى حال من حال طلب المعاش في النهار إلى حال السكون في الليل ؛ ولذا عبر بالفعل المضارع الذي يدل على التجدد والحدوث .

كما نلاحظ أن جميع الأخبار الواردة في الآيات والمخبرة عن قدرة الله وعظمته وامتنانه على عباده كلها جميعًا من النوع الابتدائي ؛ إذ لا يشك عاقل في أن صانعها هو الله عز وجل ، فهي لا تحتاج إلى تأكيد ؛ إذ هي مشاهدة واضحة للعيان ، فالله عز وجل هو الذي مد الأرض وبسطها طولاً وعرضًا حتى أمكن كل حيوان السكون فيها والاستقرار عليها ، وهو الذي أرساها بالجبال لتستقر من التزلزل والتموج لئلا تميد بأهلها وتضطرب .

(فإنها مقرة على تيار الماء المحيط بها من جميع جوانبها)[1]

---

(1) – تفسير القرآن العظيم لابن كثير القرشي الدمشقي ، تحقيق سامي محمد السلامة ، دار طيبة المجلد ٤ ، ١٤٢٠ـ ١٩٩٩ .

وهو الذي أنبت فيها من كل زوج من جميع الزروع والثمار والنبات والأنواع ، أما ختام الآية (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) الرعد ٣ ، فقد اختلف فيها الأسلوب حيث جاء مؤكدًا بإن وإسمية الجملية ؛ لزيادة اليقين بعظمة هذه الآيات وبالتالي دعوة بني آدم إلى التفكير فيها ؛ ولذا قدم المتعلق (في ذلك) لتنبيه السامع على أهمية ما سبق ذكره من مخلوقات ، وتشويقًا لما سيذكر بعد ذلك وهو قوله (لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) .

ض

إن عملية تمدد ألواح الأرض وحركتها ، وعملية نشوء الجبال نتيجة هذا التمدد وكذلك نشوء الأنهار نتيجة هذا التمدد أيضًا ما هي إلا آيات ومعجزات مبهرة تستحق التفكر ؛ ولذلك ختم بقوله (إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) .

إن اختيار هذا الفعل (يتفكرون) دون غيره من مثل (يعقلون) التي قد تشابهها في المعنى ؛ لأن في هذه المخلوقات وبديع صنعها وتسخيرها ما يستوجب حقًا التفكر والتأمل والتدبر ، فالعقل موجود لكنه يحتاج للإعمال ، (ولأن التفكر فيها يؤدي إلى الحكم بأن تكوين كل من ذلك على هذا النمط الرائق والأسلوب اللائق لابد له من مكون قادر حكيم يفعل ما يشاء ويختار ما يريد لا معقب لحكمه وهو الحميد المجيد) [١] ، ثم هو اختار التفكر فعلاً ولم يقل " مفكرين " لتكون دعوة دائمة التجدد والاستمرار ، وحث دائم على التفكر على مر العصور ومدى الأيام في عجائب قدرة الله خاصة في هذه الأزمنة التي تتوالى فيها الاكتشافات المثبتة قدرة الله .

---

(١) أبو السعود ص٤ حـ٥ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وواضح التعريض بالكفار في هذه الآية ؛ إذ هو تعريض بذمهم حيث حرموا أنفسهم من الاستفادة من نعمة العقل ، فلم يعملوه في التفكير والتدبر في مخلوقات الله .

وما أروع الإشارة بقوله (ذلك) ،وما أبلغ الجمع في قوله (لآيات) ؛ ذلك لأن اسم الإشارة الذي هو للبعيد يدلنا على بعد هذه الأشياء عن الطاقة البشرية ، فليس بمقدور أحد مثل هذا الصنيع كما أن فيه تأكيدًا على عظم شأنها وجلال قدرها .

ومما أكد هذا قوله : (لآيَاتٍ) ؛ إذ كل واحدة من هذه المخلوقات آية باهرة وعلامة ساطعة جلت حكمة صانعها ، فما أعظم هذه الآيات وما أغزر معانيها على قلة ألفاظها ، وما أروع التأمل فيها .

فالخلق الباهر والشدة والقوة دليل على كمال قدرة الله تعالى ، والحسن والإتقان ، وبديع الصنعة ، وبديع الخلقة دليل على أن الله تعالى أحكم الحاكمين ، وأنه بكل شيء عليم .

والمنافع والمصالح للعباد دليل على رحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء ، وعلى وجوده وكرمه الذي عم كل حي .

وعظم الخلقة ، وبديع النظام دليل على أن الله تعالى هو الواحد الأحد الفرد الصمد .

وهكذا نجد أن المعنى متحد في جميع هذه الآيات ، لكن تنوعت بعض الألفاظ وتغايرت وتباين الأسلوب وهذا ليس تصرفًا في فنون القول فحسب ، بل تصرف في المعاني .

ثم ننتقل مع القرآن إلى زاوية أخرى من زوايا الحقائق العلمية والمعجزات الربانية وهي حقيقة اهتزاز التربة .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تلك الحقيقة التي اكتشفها العالم البريطاني (براون) عام ١٨٢٧م وسميت باهتزازة براون ، فسبحان الله العظيم الذي أوجدها في كتابه قبل أن يولد براون.

إنها آية عظيمة الشأن ، عالية القدر من آيات القرآن العظيم ، ساقها الله سبحانه وتعالى إلى عباده المؤمنين ؛ ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم ، فالإيمان يزيد و ينقص .

فالآية تقول إنك ترى الأرض يابسة خاملة ساكنة .. فكل ما فيها ساكن لا يتحرك وكل سكانها و كائناتها محكوم عليها بالموت و الهلاك إذا لم ينزل عليها الماء ؛ البكتريا .. الفطريات ... الطحالب ... البذور ... السيقان الأرضية .. البصيلات .. حويصلات الديدان ، بويصلات الحشرات .

كل هذه التراكيب تعيش تحت الأرض في سبات وسكون ، هاجعة لا تتحرك ، وتصبح الأرض هامدة ساكنة ، سكون يشابه سكون القبور .. انظر إلى هذه الأرض القاحلة المتماسكة الجزيئات إذا لم ينزل عليها المطر تظل هكذا إلى أن تأتي اللحظة الحاسمة والإشارة الإلهية العجيبة (فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت و ربت) فصلت ٣٩ تبدأ الحركة ؛ فإن ماء المطر إذا نزل إلى التربة أحدث لها اهتزازات فتهتز حبيبات التربة ، هذه الحبيبات عبارة عن صفائح بعضها فوق بعض من المعادن المختلفة ، فإذا دخل الماء بين هذه الصفائح نمت وربت أي زادت بسبب دخول الماء بين هذه الصفائح .

إن القرآن الكريم قد رسم هذه الصورة في أروع مشهد وأدق تفصيل ، حيث صور تلك الأرض الصامتة الساكتة صورة حية متحركة ، فكان صمتها وهمودها وخشوعها أبلغ في الدلالة من نطق جميع الناطقين ،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فقد تنطق الأشياء وهي صوامت وما كل نطق المخبرين كلام ، نطقت بعظمة الله وحكمته وعلمه (فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ) . فصلت ٣٩ ، يالدقة اختيار هاتين الكلمتين لوصف الأرض عند زوال المطر ؛ إذ توحيان وتصوران هذا التحرك الذي يحدث للأرض قبل إنبات النبات تهيئة لها .

فنجد كلمة (اهْتَزَّتْ) تعبر تمامًا عن الأثر الذي يحدثه الماء عند نزوله على التربة من اهتزاز لحبيباتها نتيجة للشحنات الكهربائية ، ودفع جزيئات الطين بجزيئات الماء ، هذا المنظر البديع المعجز يصوره ربنا سبحانه وتعالى بقوله (اهتزت)كما ذكرنا .

أيضا كلمة (ربتْ) تعني في اللغة انتفخت ونمت وزادت في السمك ، وهو ما وضحناه من حدوث زيادة في حجم الحبيبة وسمكها نتيجة امتصاص الماء والعناصر الغذائية الذائبة فيه ، وانتفخت لتخزين الماء اللازم لإحياء الأرض ، وبهذا تزداد التربة في الحجم ، وتربو أي تزداد و تنتفخ ، وهذا المشهد طالما شاهدنا صورًا مصغرة منه عند وضع الخميرة في العجين ، تبدأ الخميرة في نشاطها الحيوي ، و يزداد حجم العجين حتى يغيض من الإناء ، ولولا نزول الماء لم يتم ذلك ، فسبحان الله البارئ المصور ، ثم يبزغ الجذر والريشة ، فتكون الأرض بذلك قد (أَنْبَتَتْ) ، وهي المرحلة الثالثة التي تحدثت عنها الآية ، ثم يظهر النبت بعد ذلك فوق سطح التربة ويكبر ويثمر معطيًا رزقًا للعباد ، ويتم كل هذا وفق ترتيب محكم وزمن متقن ؛ لأنه من صنع الله الذي أتقن كل شيء خلقه (فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠)) الروم : ٥٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إن في هاتين الآيتين وحدة بين أجزاء الصورة .

لقد عبر القرآن عن الأرض قبل نزول المطر ، وقبل إنبات النبات مرة بأنها (هامدة) ومرة بأنها (خاشعة) .

والسؤال :لم غاير بين التعبيرين ؟!!

ولمعرفة ذلك لابد من الرجوع إلى السياق الذي وردت فيه هاتين الكلمتين ، وردت هامدة في سياق كله يتحدث عن البعث والإحياء والإخراج ، وهذا مما يلائم قوله (هامدة) .

إنه التعبير الدقيق في هذه الكلمة ، فالأرض الجافة لا تتوقف فيها الحركة نهائيًا ، بل هنالك حركة لذرات التراب ولكنها هامدة أي ضعيفة جداً ، فإذا ما نزل عليها الماء ، وهذا يحدث أولاً ، ثم تبدأ جزيئات التراب بالاهتزاز ، وهذا يحدث ثانيًا ، وبعد ذلك يختزن التراب كميات هائلة من الماء في داخله لفترة طويلة مما يؤمن الغذاء باستمرار لهذه النباتات ، أما (خاشعة) فوردت في سياق يتحدث عن العبادة والسجود وهذا مما يلائم قوله (خاشعة) ، وزاد مع قوله (هامدة) الإنبات والإخراج إلى جانب الاهتزاز والإرباء أما في (خاشعة) فلم يزد شيئًا من ذلك ؛ لأنه لا محل له في سياق العبادة والخشوع والسجود .

(اهتزت وربت) (إنهما تخيلان حركة الأرض بعد خشوعها وهذه الحركة هي المقصودة هنا ؛ لأن كل ما في المشهد يتحرك حركة العبادة ، فلم يكن من المناسب أن تبقى الأرض وحدها خاشعة ساكنة ، فاهتزت لتشارك العابدين المتحركين في المشهد حركتهم ، ولكي لا يبقى جزء من أجزاء المشهد ساكنًا ، وكل الأجزاء تتحرك من حوله وهذا لون من الدقة في تناسق الحركة المتخيلة يسمو على كل تقدير ... فالتعبير القرآني لا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يرمي إلى مجرد أداء المعنى الذهني ، إنما يريد الصورة كذلك ، والصورة تقتضي هذا التنويع ؛ ليتم التناسق مع الأجزاء الأخرى في اللوحة أو في المشهد المعروض ، ودلالة هذا التنويع حاسمة في أن (التصوير) عنصر أساسي في أسلوب القرآن ، وأن التعبير لا ينتهي إلى أداء المعنى الذهني مجردًا ، إنما ينبض بطبيعته بصور حية للمعاني ، تختلف هذه الاختلافات الدقيقة اللطيفة حسب اختلاف الأجزاء والألوان (١) .

إن تعابير القرآن دقيقة جدًا من الناحية العلمية واللغوية ، وهذا يشهد بإعجاز هذا الكتاب العظيم الذي قال الله عنه: (وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) فصلت: ٤١-٤٢ .

ولم تتحد أجزاء هاتين الآيتين فحسب ، بل كان هناك تلاحم بينهما وبين ما قبلهما من آيات ، ولذلك وصلتا بما قبلهما للاتفاق في المعنى إلى جانب الاتفاق في الخبرية لفظاً ومعنى .

وجاء اختيار الفعل (ترى) لتكتمل به تلك الصورة البديعة ، فهي صورة مرئية للعين إلى جانب المعرفة العقلية العلمية التي أثبتها العلم الحديث ، وهذا ما ينطبق على لفظ الرؤية ، إذ هي شاملة للرؤية البصرية والعلمية ، وبمقدار ما يتم التوافق الدقيق بين المعنى القائم في الذهن واللفظ الدال عليه والمصور له يتسامى الكلام في درجات البلاغة والبيان .

فهل يتحقق لإنسان كائنًا من كان أن يحقق ذلك التوافق بمعناه الكلي الدقيق ؟

---

(١) التصوير الفني في القرآن ص ١٠٠

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وجاء بصيغة المضارع ؛ إذ هو دعوة مستمرة متجددة للتفكر في آيات الله ، كما جاء فاعل الفعل (ترى) ضميرًا مستترًا تقديره (أنت) لكون الخطاب عامًا وصالحًا لكل زمان ومكان ، فمازال العلم يكشف لنا كل يوم عن جديد ، وتأمل تلك القدرة والقوة المأخوذة من حرف " الفاء " في قوله (فإذا) إنها السرعة في التنفيذ من إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون ، وجاء هذا متناسبًا مع أداة الشرط " إذا " ، إذ هي للشرط المتيقن لا المشكوك فيه ، وهذا مما يليق بجلال الله ، وقدم الجار والمجرور " عليها " على المفعول به الماء في قوله : (فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ) . فصلت " .

فمن رحمة الله بنا أنه أودع خصائص مهمة في تراب الأرض ، وهي قدرته على اختزان الماء ، وأن ذراته تهتز لدى اختلاطها بماء السماء ، وبالتالي فإن ذلك يساعد النبات على النمو، كذلك هناك خاصية مهمة جداً وهي قدرة التراب على اختزان الحبوب والحفاظ عليها دون أن تفسد وذلك لسنوات طويلة ، وبمجرد نزول الماء تنمو هذه الحبوب وتخرج لنا النبات ، ولولا ذلك لتحولت الأرض إلى صحراء جافة وانعدمت الحياة على ظهرها ، فالحمد لله على هذه النعم الغزيرة.

إن وجود مثل هذه الحقيقة العلمية في كتاب أنزل قبل أربعة عشر قرنًا يدل على صدق هذا الكتاب ، وإن الذي أنزل هذا الكتاب يعلم السر وأخفى .

وقدم الليل لأنه أسبق من النهار ؛ وذلك لأنه قبل خلق الأجرام كانت الظلمة .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الثالث

الزلازل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب)الرعد ٤١

(بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون) الأنبياء ٤٤

(قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون) الأنعام ٦٥

(أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا) الإسراء ٢٨

(أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء إن في ذلك لآية لكل عبد منيب) سبأ ٩

(فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) العنكبوت ٤٠

(أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير) الملك ١٦

(إذا زلزلت الأرض زلزالها ...) الزلزلة ١

تشير هذه النصوص القرآنية إلى حقائق علمية يعيها كل فرد وكل عصر بالقدر الذي يطيق ، وبالقدر الذي يبلغ إليه علمه وملاحظته ؛ ليشعر بعظمة الله وقدرته وقوته التي تذلل الأرض له وتحفظه وتحفظها ، وإذا أخل الإنسان بنظام هذا الكون وعصى من بيده الملك ، فإن الهلاك والدمار مصيره ، إذ يأذن الله للأرض أن تضطرب قليلاً فيمور كل ما عليها ويضطرب فتكون هناك الزلازل والبراكين وخسف الأرض مما لا يستطيع أحد من البشر أن يمسكه فهم لا يملكون من هذا الأمر شيئاً ولا يستطيعون ، إنهم ضعاف عاجزون بكل ما يعلمون وما يعملون .

إنها آيات بينات تذكر البشر الذين يخدعهم سكون الأرض وسكوتها، ويغريهم الأمان بنسيان خالقها ومدبرها.

تفسير المفسرين لنقص الأرض وللزلازل :-

ذهب الزمخشري في كشافه بأن المعنى " هو إنقاص أرض دار الحرب وحذف أطرافها بتسليط المسلمين عليها وإظهارهم على أهلها وردها دار إسلام "[١] ، وفي تفسير القرطبي : (أفلا يرى هؤلاء المشركون بالله أنا نأتي الأرض نخربها من نواحيها بقهرنا أهلها ، وغلبتهم ، وإجلائهم عنها ، وقتلهم بالسيوف ، فيعتبروا بذلك ويتعظوا به ، ويحذروا منا أن ننزل من بأسنا بهم نحو الذي قد أنزلنا بمن فعلنا ذلك به من أهل الأطراف ؟[٢]

---

(١) الكشاف للزمخشري ج ٢ صـ ٢٣٤ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ٩ صـ٣٣٤ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقال ابن عباس : "خرابها بموت علمائها وفقائها وأهل الخير منها" ، وقال الشعبي : لو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حشك ، ولكن تنقص الأنفس والثمرات ، وكذا قال عكرمة : لو كانت الأرض تنقص لم تجد مكاناً تقعد فيه ، ولكن هو الموت ، وقال مجاهد : خرابها ، وقال الحسن والضحاك هو : ظهور المسلمين على المشركين .

• (وأخرجت أثقالها) : قال ابن عباس ومجاهد أثقالها : موتاها ومنه قيل للجن والإنس الثقلان .

وباستعراضنا لهذه الآراء المختلفة والأقوال المتباينة للمفسرين نقول إنها خاصية امتاز بها كتاب الله عز وجل ، هذه الخاصية التي لا نستطيع أن نجدها في غير هذا الكتاب المعجز ، وهي احتمال الآية الواحدة لعدة معان متباينة ، أو صلاحية صياغته ـــ أعني القرآن ـــ لمخاطبة الناس عامة على اختلاف ثقافاتهم وعصورهم ، فمعانيه مصوغة ، بحيث تصلح لأن يخاطب بها جميع الناس على حسب اختلاف مداركهم وثقافاتهم ، وعلى تباعد أزمنتهم وبلدانهم ، ومع تطور علومهم واكتشافاتهم .

ويتضح هذا جليًا في هذه الآيات التي معنا ، فعندما عرضت على مسامع الصدر الأول من المسلمين فهمومها بتلك المعاني سالفة الذكر ، والآن نعرضها على مسامع علماء عصرنا لنرى كيف فهموها مع تطور زمنهم

.

ونبدأ بالآية الأولى وهي آية سورة الرعد ، تلك الآية التي تنطق بحقيقة كونية ، وقد تكرر معناها مرة أخرى في سورة الأنبياء ، ونتساءل ما مغزى الدلالة العلمية لهاتين الآيتين الكريمتين ؟

ونلخص آراء العلماء فيما يلي :-

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إن لفظة الأرض ترد في القرآن الكريم بمعنى الكوكب ككل ، وبمعنى اليابسة ، وبمعنى التربة ، ولإنقاص الأرض من أطرافها في إطار كل معنى من تلك المعاني عدد من الدلالات العلمية نوجزها فيما يلي :-

أولاً : في إطار دلالة لفظة الأرض على الكوكب ككل نجد ثلاثة معان علمية بارزة لإنقاص الأرض من أطرافها :

أ - انكماشها على ذاتها وتناقص حجمها باستمرار .

ب- تفلطحها قليلاً عند القطبين ، وانبعاجها قليلاً عند خط الاستواء.

ج - اندفاع قيعان المحيطات تحت القارات وانصهارها وذلك بفعل تحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض .

ثانيًا : في إطار دلالة لفظ الأرض على اليابسة التي نحيا عليها نجد معنيين لإنقاص الأرض من أطرافها نوجزهما في:

أ - أخذ عوامل التعرية المختلفة من المرتفعات ، وإلقاء نواتج التعرية في المنخفضات من سطح الأرض حتى تتم تسوية سطحها .

ب - طغيان مياه البحار والمحيطات على اليابسة وإنقاصها من أطرافها.

ثالثا : في إطار دلالة لفظ الأرض على التربة التي تغطي صخور اليابسة إنقاص الأرض من أطرافها بمعنى التصحر، أي: زحف الصحراء على المناطق الخضراء ، وانحسار التربة الصالحة للزراعة.[1]

وهكذا نجد أن هاتين الآيتين جاءتا صالحتين لخطاب جميع الناس ، فقد فسرها وفهمها الأولون كما ذكرنا سالفًا ، وهو فهم صحيح تدل عليه الآية ، ويتناسب مع العصر .

---

(١) كوكب الأرض الزلازل منشورات تايم لايف ، أمستردام la planet tereles voclans timlife,amsterdam

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أما الباحث الجيولوجي المتخصص فقد فهمها فهمًا مغايرًا وهو أيضًا معنى صحيح تدل عليه الآية بلغتها وصياغتها ، إنه الإعجاز القرآني الذي يفوق الطوق البشري ؛ إذ لا يقوى على صياغة كلام يكون على قدر إفهام الناس المتفاوتة وعلومهم المختلفة ، بحيث يشعر كل فريق أن الكلام إنما هو على قدر حاجته وفهمه.

إن النص القرآني نص ثابت ، ولكن صلاحيته لكل زمان ومكان تتحقق باحتماله لتعدد الرؤى وتفاوت المتقاربات ، وبقابليته للتلقي المتجدد في سياقات التلقي المختلفة المتغيرة المتجددة فهو (لا يرضى بأن يقرأ قراءة واحدة تزعم لنفسها أنها القراءة الوحيدة الممكنة ؛ بل هو ذلك الوجود الذي يتحقق عبر قراءات متعددة قد تتباين وتتمايز ، ومن هنا كان للثبات والتحول أهمية في قراءة النص القرآني عند الإعجازيين الذين حركتهم خلفية ذهنية ،... فأنتجوا أدوات إجرائية خاصة لفك استغلاق النص للوقوف على القيم الجمالية التي تحقق الإعجاز" [١]

ولا أرى وجهاً للخطأ في التعدد ، ولكن الخطأ كل الخطأ في أن يزعم واحد أنه صاحب الصواب المطلق في رؤيته التي انطلق منها أو التي ذهب إليها.

إن النص القرآني قابل للتلقي عبر الأزمان والأعصار ، قابل للتواصل الذي لا تحده حدود المكان.

التحليل البلاغي للآيات:

---

(١) النقد والإعجاز د/ محمد تحريشي ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ٢٠٠٤م صـ٧،٨

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إن هذه الآيات التي بين أيدينا تعد اليوم مسلمات علمية يعتمدها العلم في فرع الجيولوجيا ، ولم يكتشفها الإنسان إلا بعد قرون من التنزيل ، وهي وجه من وجوه البلاغة والبيان ، وقبل أن نخوض في تحليل هذه الآيات بلاغيًا لا بد من تعريف الزلزال أولاً وذكر فوائده.

تعريف الزلزال : هو اضطراب في طبقات الأرض السطحية ، وتحدث الزلازل نتيجة اصطدام الألواح الأرضية بعضها ببعض ، أو نتيجة للبراكين ، أو نتيجة للنشاطات البشرية المدمرة مثل : التجارب النووية.

إن سطح الأرض مقسم إلى مجموعة ألواح وهي في حركة دائمة ، ويقول العلماء إن الزلازل تحدث نتيجة تشوه في ألواح الأرض ، فقد خلق الله هذه الأرض وغلفها بما يشبه الألواح التي تتمدد باستمرار ، ولولا هذا التركيب المرن للأرض لحدثت مئات الزلازل المدمرة كل دقيقة واستحالت الحياة على ظهر الأرض (١).

فوائد الزلزال :- الزلزال جند من جنود الله سخرها – عز وجل – ابتلاء للمؤمنين ، وعقابًا للعاصين ، وعبرًا للناجين .

وهي ظاهرة كونية وإن بدت أنها مدمرة إلا أنها معمرة للكون ؛ فإنه يمكن أن يصاحبها تكوين سلاسل أو ثوران للبراكين التي تكون محملة بالثروات المعدنية إلى سطح القشرة الأرضية ، فلولا حدوث الزلزال

---

(١) Earthquake Facts and Statistics, www.usgs.gov, 01 October 2007, Earthquake, www.wikipedia.org

وتكون الجبال وثورة البراكين لاستوى سطح البحر مع اليابسة وما كانت هناك حياة .(١)

(فلك اللهم الحمد والشكر)

وانظر إلى اختيار القرآن للمفردات ؛ إنه سر من أسرار إعجازه ، فجاء لفظ (الرؤية) في الآيتين مفضلاً على لفظ (النظر) أو (المشاهدة) لأن (يروا) تحمل معنى الرؤية الكاملة التي لا يحجبها ما يبدد النظر يمنة أو يسرة لو جاء التعبير " ينظرونها " أو " يشاهدونها " فالرؤية هي إدراك المرئي من الجهة المقابلة ، أما النظر أو المشاهدة فهو تقليب البصر حيال مكان المرئي طلبًا لرؤيته "فالنظر طلب الهدى ، والشاهد قولهم : نظرت فلم أر شيئا ،والنظر أيضا هو الفكر والتأمل لأحوال الأشياء"(٢) وللجمع بين الرؤية الحسية والرؤية العلمية المؤدية لليقين ، وهذا ما حدث بالفعل ، ولا يفي كما نرى بهذا المعنى لفظ "ينظروا" أو"يشاهدوا" وهذا إيجاز بالحذف ؛ إذ التقدير ألا ينظرون "فلا يرون" وهكذا نجد أن للكلمة في القرآن الكريم قيمة عظيمة ، وأهمية كبرى ، وذلك أن الكلمة هي الأصل الذي يدور عليه المعنى ، فإذا وضعت الكلمة في موضعها الذي ينبغي أن تكون فيه ، فقد أصابت المعنى كله .

---

(١) (Davies, G., 2005. Dynamic Earth: Plates, plumes, and mantle convection. 69 – 47 2nd Edition, Cambridge University Press, 458 P.

(٢) الفروق اللغوية صـ٧٥ تحقيق أبي عمرو عماد زكي البارون المكتبة التوفيقية .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

" وقد أفاد دخول الهمزة على "لم" معنيين أحدهما : التنبيه والتذكير بقدرة الله عز وجل ، والثاني: التعجب من هذا الأمر العظيم[١]

وانظر إلى تأكيد الرؤية هنا ، فهو أمر هام وخطب جلل ، إنها ظاهرة جيولوجية تدل على طلاقة القدرة الإلهية المبدعة ؛ ولذا دخلت الهمزة على النفي فجعلته إثباتًا ؛ لأنه يصير معها نفيًا يحصل منهما إثبات .

ثم انظر إلى ضمير العظمة (أنا) الذي يشعرك بقدرة الله وعظمته.

ثم إلى هذا الإسناد ؛ إسناد الإتيان لله عز وجل ، ويكون الأصل على قول المفسرين أن يأتي جيوش المسلمين ؛ تعظيماً لهم وإشارة إلى أنه بقدرته تعالى ورضاه ، وفيه تعظيم للجهاد والمجاهدين.

ويكون على قول الجيولوجيين فيه إثبات للقدرة الإلهية ، والعزة الربانية ؛ إذ لا يقدر على هذا الأمر إلا هو .

وقوله : (نأتي الأرض) تصوير وتمثيل لما يجريه الله عز وجل على أيدي المسلمين من تخريب وإضافتها إلى دار الإسلام "[٢]

وهو الآن تصوير وتمثيل لما يجريه الله عز وجل في الكون من آيات تنطق بطلاقة القدرة ، وإبداع الخالق .

" والتعبير يرسم يد القدرة وهي تطوي الرقعة ، وتنقص الأطراف ، وتزوي الأبعاد ، فإذا هو مشهد ساحر فيه الحركة اللطيفة ، وفية الرهبة المخيفة "[٣]

---

(١) البرهان بتصرف صـ١٧٩ .

(٢) أبو السعود ص٢٠ .

(٣) سيد قطب ص٢٣٨١ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إنه تعبير يحاكي الواقع بتصوير فني يبرز الحركة ، ويعبر عن مختلف أبعاد الواقع ولا يقتصر على التصوير الجامد للأشكال والرسوم الظاهرة ، إنه تصوير يظهر الواقع كأنه ملموس بشكله وحركته.

ثم تأمل في قوله :" نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا " لقد لاءمت كل لفظة أختها ، فإن عملية نقص الشيء كيفية أخذه من أطرافه لا من وسطه أو أعلاه ، وما أدق قوله : " نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا " فإنه مطابق تمام المطابقة للظاهرة الجيولوجية ، فلم يقل : " ننقص أطرافها " ؛ إذ ليس المراد نقص الأطراف ، وإنما هو نقص للأرض ، وهذا ما أثبته العلم الحديث .

كما أن في قوله " ننقص أطرافها " يفهم منه أن ذلك قد يكون دفعة واحدة والواقع يخالف ذلك .

كما أن في ذكر " الطرف" كناية عن الوهن والإزالة ؛ لأن نقص الطرف يتوصل به إلى ذلك (والله يحكم) لا أحد غيره ، فالقصر حقيقي تحقيقي . (لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ) خبر من النوع الابتدائي فالمخاطب خالي الذهن والغرض من هذا الخبر نهي الناس أن يخوضوا في البحث عن حكمه وحكمته إذا خفيت عليهم .

وما أروع اختيار هذه الكلمة (لا معقب) ، فهي كلمة فنية (من أوائل ما عرف من المصطلح القضائي)[١]

(وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) أي الانتقام من الكافرين ، سريع الثواب للمؤمنين

وقيل : " لا يحتاج في حسابه إلى رؤية قلب ، ولا عقد بنان "[٢]

---

(١) من بديع لغة التنزيل د/ إبراهيم السامرائي دار الفرقان ص١٨٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن القرطبي ج٩ ص٣٣٤ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فالجملة خبرية غرضها إظهار القدرة الإلهية والقوة الربانية .

كان هذا هو ختام الآية الأولى تلك الآية التي تحمل حقيقة جيولوجية ؛ وهي حقيقة نقص الأرض من أطرافها تلك الحقيقة التي تكررت في آية أخرى ؛ لندرك نعمة الله علينا ونزداد إيمانًا بهذا الخالق العظيم سبحانه وتعالى ، ونزداد يقينًا بآيات الله تعالى ولقائه وصدق كلامه ووعده.

أما الآية الثانية التي تتحدث عن نفس القضية فقد بدأها بـ (بل) (بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ)

وهي للإضراب عما توهموا ببيان أن الداعي إلى حفظهم تمتيعنا إياهم بما قدر لهم من الأعمار ، أو عن الدلالة على بطلانه ببيان ما أوهمهم ذلك ، وهو أنه تعالى متعهم بالحياة الدنيا وأمهلهم حتى طالت أعمارهم فحسبوا ألا يزالوا كذلك وأنه بسبب ما هم عليه "[1]

ولذلك عقب بما يدل على أنه طمع فارغ ، وأمل كاذب ، حيث قال : (أفلا يرون)

وآثر هنا لفظ (متعنا) للإشارة إلى أن النعم قد تكون مصدر ابتلاء إذا لم يستيقظ الإنسان لنفسه ويراقبها ويصلها دائمًا بالله .

وفي قوله : (حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ) إطناب يفيد شدة الإيذاء ، ومنتهى الإيلام ، فالمتاع الطويل دون ذكر الله ومراقبته يفسد الفطرة ، ويبلد الحس ، ويطمس البصيرة .

والإشارة في قوله : (هؤلاء) راجعة إلى المخاطبين من قبل في قوله : (قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ) الأنبياء ٤٢ وهم كفار قريش ومن اتخذ آلهة من دون الله .

---

(١) أبو السعود ص٦٩ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفي قوله : (بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ) الأنبياء ٤٤ إيجاز واختصار ؛ لأن المعنى كما في معظم التفاسير : أن الله عز وجل يمهل الكفار ويملي لهم في النعمة ، وأن ذلك يزيدهم كفراً ويحملهم على ما هم فيه من الضلال " والسياق يلمس وجدانهم بعرض المشهد الذي يقع كل يوم في جانب من جنبات الأرض ؛ حيث تطوى رقعة الدول المتغلبة ، وتنحسر وتتقلص ، فإذا هي دويلات صغيرة وكانت امبراطوريات ، وإذا هي مغلوبة على أمرها وكانت غالبة، وإذا هي قليلة العدد وكانت كثيرة ، قليلة الخيرات وكانت فائضة بالخيرات"[1]

- (أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ) الأنبياء ٤٤

الفاء لإنكار ترتيب الغالبية على ما ذكر من نقص أرض الكفرة بتسليط المسلمين عليها ، كأنه قيل: أبعد ظهور ما ذكر ورؤيتهم له يتوهم غلبتهم ، والفاء عطف على مقدر أي كيف يكونون غالبين بعد نقصنا لأرضهم من أطرافها ؟ ففيه إيجاز بالحذف ، والسؤال :لم آثر الأسلوب الإنشائي (الاستفهام) على الخبر ؟

لأن الاستفهام يعطي أكثر من دلالة فيجعل النفس تسبح معه ، والخيال ينطلق في عدة تصورات ؛ إذ الاستفهام هنا قد يكون معناه التقريع ؛ تقريع من الله تعالى لهؤلاء المشركين به بجهلهم ، أو استفهام مراد به النفي أي : ليسوا بغالبين ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الغالب ، أو استفهام للاستبعاد : أي أيكون بوسع كفار " مكة " الخروج عن قدرة الله ، أو الامتناع عن الموت ، أي لا يكون ذلك .

---

(١) في ظلال القرآن المجلد الرابع دار الشروق صـ٢٣٨١ .

أو الاستفهام مراد به الإنكار ، أي إنكار غلبتهم ، أي: كيف يكونون غالبين بعد أن نقصنا لأرضهم من أطرافها.

أو الاستفهام للتقرير تقريرهم بأنهم مغلوبون لا غالبون .

وأفاد التعريف في قوله : (أفهم الغالبون) التعريض بأن المسلمين هم المتعينون للغلبة المعروفون بها .

ونلاحظ المفارقة العجيبة بين هاتين الآيتين ؛ الأولى بدأت باستفهام وختمت بالخبر ، والثانية بدأت باستفهام وختمت بالخبر ، فالقرآن ينوع في أساليبه ، ويعدد في طرائقه بما يتناسب مع حال مخاطبيه .

ثم ننتقل مع القرآن إلى ظاهرة جيولوجية أخرى ، وهي ظاهرة الزلازل ، تلك الظاهرة التي وصفها القرآن الكريم بعدة كلمات منها الزلزلة والصيحة والرجفة والخسف وما ينتج عنه من غرق ، فيذكر الناس بقدرته على تعذيبهم إثر تذكيره بقدرته على تنجيتهم ، وينذرهم بأن عاقبة كفر النعم أن تزول وتحل محلها النقم .

فيقول : (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ...)

(عن سعد بن أبي وقاص عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في هذه الآية : إما أنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد) ، وعن أبي بن كعب في هذه الآية قال : هن أربع كلهن عذاب وكلهن واقع لا محالة فمضت اثنتان بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بخمس وعشرين سنة فألبسوا شيعاً ، وذاق بعضهم بأس بعض ، وبقيت اثنتان واقعتان لا محالة : الخسف والرجم) [١]

---

(١) فتح القدير ج٦ ص١٢٧ ، تفسير القرآن العظيم لابن كثير ص١٤٠ ج ٢ دار المعرفة ١٤٠٠ ١٩٨٠م .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ)

استئناف مسوق لبيان أنه تعالى هو القادر على إلقائهم في المهالك إثر بيان أنه هو المنجي لهم منها.

فالجملة خبرية ، وليس غرض الخبر مجرد الفائدة ، وإنما يحمل في طياته التهديد لهم بتذكيرهم بأن القادر من شأنه أن يخاف بأسه .

كما أن فيه وعيد ضمني بالعذاب لإشراكهم به سواه ، وعدم شكرهم لما أنعم به عليهم من النعم ، وأسداه لهم من المنن .

وجاء القصر هنا (هو القادر) – بتعريف الطرفين – مخاطباً للعقل والوجدان في آن واحد معًا ، فكان له القدرة على حمل القارئ والسامع على تصوير الموقف واستشعاره وما فيه من معان ، فأبرز معنى القدرة في قوة وجلاء ، وساعد في تصوير مشهد القوة في تدفق وحياة .

فكان ضربًا من ضروب الإيجاز الذي هو أعظم أركان البلاغة إذ حدد المعنى تحديدًا كاملاً ، كان سمة أسلوبية بالغة الأثر ؛ إذ صور قدرة الله عز وجل في صورة حضورية واضحة بينت القدرة والقوة ، حيث اختص تعالى بالقدرة على بعث العذاب عليهم ، وأن غيره لا يقدر على ذلك ، فلا ينبغي لهم أن يخشوا الأصنام " فهو قصر إضافي" ؛ إذ هو القادر وحده لا غيره مما يعبدون.

كما أفاد التعريف في قوله : (القادر) أنه الكامل القدرة .

والسر البلاغي للقصر تهديد المنكرين ؛ لأن القادر على إنجائهم مع اعترافهم بهذه القدرة قادر أيضًا على إنزال العذاب بهم .

ثم انظر إلى هذه المفردة البديعة (يبعث) وانتقائها واختيارها دون غيرها من المفردات.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لقد وضعت وضعًا فنيًا مقصودًا في مكانها المناسب ؛ فإن أصل البعث : إثارة الشيء وتوجيهه ، يقال : بعثه فانبعث ، وهو أبلغ في هذا الموقف ؛ إذ المقام مقام عذاب ، والبعث يستعمل فيما هو أشد ، فهو عذاب يجهلون كنهه ، ولذا جاء معه العذاب نكرة منونة ، فالبعث أعم ؛ إذ فيه معنى الإرسال ، وفيه معان أخرى .

أما الإرسال : قد يكون لا إثارة فيه ولا توجيه ، والإرسال يفيد المعرفة بنوع العذاب ، فهو لا يليق بهذا المقام .

إنها دقة في التعبير ، وإحكام في الفن ، وعلو في الصنعة ، إنه (كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) هود ١

(ثم قدم الجار والمجرور (عليكم) على المفعول الصريح للاعتناء به والمسارعة إلى بيان كون المبعوث مما يضرهم ولتهويل أمر المؤخر)[١]

(عذابًا) التنوين والتنكير للتفخيم والتعظيم أي عذابًا عظيمًا ، وللشمول ليشمل كل عذاب يأتي من فوق الرؤوس ومن تحت الأرجل ، أو من رؤساء الناس أو من تحتهم ، فالإبهام مراد للشمول ، وحكمة مثل هذا الإبهام في القرآن أن ينطبق معنى اللفظ على ما يدل عليه مما يحدث في المستقبل ، وهذا ما طابق الواقع ، فهو ينطبق الآن على الحرب الأوربية التي لم يسبق لها نظير ؛ فقد أرسل الله على الأمم عذابا من فوقها بما تقذفه الطيارات والمناطيد من المقذوفات النارية والسموم البخارية والغازية التي لم تعرف قبل هذه الحرب وعذابًا من تحتها بما يتفجر من الألغام النارية ، وبما ترسله المراكب الغواصة في البحر التي اخترعت

---

(١) روح المعاني ص١٨٠ ج٧ ، أبو السعود ص١٤٦ ج٣ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في هذا العصر ، ولبسها شيعا متعادية ، وأذاق بعضها بأس بعض ، فحل بها من التقتيل والتخريب ما لم يعهد له نظير في الأرض .

ولا شك في أن دلالة الآية على هذه المخترعات مراد ؛ لأن الله تعالى منزل القرآن هو علام الغيوب ، وفي الحديث المرفوع ما يشير إلى ذلك ؛ فقد روى أحمد والترمذي من حديث سعد بن أبي وقاص قال : سئل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن هذه الآية (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ) إلى آخرها ، فقال : " إما أنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد "[1] ويقويه ما ورد في تطبيقها على أمتنا ، لأنه سنة الله في أهل الكتاب قبلنا .

والسؤال : لم قال عليكم ثم قال بعدها من فوقكم ؟ لماذا لم يكتف بواحدة منهما؟

أو لماذا لم يقل : " إليكم " ؟ لينوع بين عليكم وفوقكم ؟

إشارة إلى أن هذا العذاب مدمر .

(عذابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) الأنعام ٦٥ ، لم ذكر أو دون الواو ؟

(لمنع الخلو دون الجمع ، فلا منع لما كان من الجهتين معا كما فعل بقوم نوح)[2]

وقصر العذاب على كونه من فوق أو من تحت دون اليمين والشمال ؛ لأنه أشد وقعًا في النفس ، فهو عذاب قاهر مدمر مزلزل ، لا مقاومة له ، ولا ثبات معه ، أما عن اليمين والشمال فقد يخيل للإنسان أنه قد يقدر

([1]) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٢ ص ٩٩٠ دار الفكر .

([2]) روح المعاني ص ١٨٠ ج ٧ ، أبو السعود ص ١٤٦ ج ٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على دفعه عنه وإبعاده وهذا ما يناسب سياق الآية إذ هي مواجهة لهم ببأس الله الذي يتشككون فيه بعد النجاة ، وهو طباق يظهر شدة العذاب .

وفي قوله : (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ) إيجاز ، أي القادر على إنجائكم من الكرب قادر على تعذيبكم .

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا) الأنعام ٦٥ (بمعنى أن يخلطكم فرقًا مختلفين على أهواء شتى ، كل فرقة منكم مشايعة لإمام ، ومعنى خلطهم : أن ينشب القتال بينهم فيختلطوا ، واللَّبْسُ واللَّبَس : اختلاط الأمر ، ولَبَسَ عليه الأمر يَلبِسُه لَبْسًا .

فالتبس ، إذا خلط عليه حتى لا يعرف جهته)[1] .

وعلى هذا فهناك فرق بين لبِس بكسر الباء ، فهي من لبس الثوب ، والمصدر اللُبس بضم اللام .

أما لبس بفتح الباء فهي الخلط ، والمصدر اللبس بفتح اللام .

(وروي عن أبي عبيد المدني (يُلبسكم) بضم الياء أي يجلكم العذاب ، ويعممكم به ، وهو من اللبس بضم الأول)[2]

وعلى هذا يكون استعارة مكنية ؛ حيث شبه شمول التفريق والاختلاف للشيع بشمول الثوب للبدن بجامع الستر ، فالتفريق والاختلاف يستر عن كل شيعة ما عليه الأخرى من الحق ، وما في الاتفاق معها من المصلحة والخير ، والثوب كذلك ساتر لجميع البدن ، وحذف المشبه به .

---

(١) من بديع لغة التنزيل د/ابراهيم السامرائي ص٧٩ دار الفرقان ط الأولى ١٩٨٤م ، أبو السعود ص ١٤٦ ج٣

(٢) القرطبي ص٩ ج٧ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وانظر إلى كلمة (شِيَعًا) هذه الكلمة التي تناسب السياق تمامًا ، وحرف الشين فيها يدل على الشيوع والانتشار الذي يتفق مع شيوع وانتشار الفرقة والخلاف ، (كما أن مادة (ش ي ع) تدل على ثلاثة معان في اللغة ، أحدها : الانتشار والتفرق ، وثانيها الاتباع والدعوة إليه ، وثالثها : التقوية والتهييج ، وكلها معان مرادة في الآية) [١]

(وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ) ، هذه الجملة معطوفة على يبعث ، فبينهما وصل للتوسط بين الكمالين ، فالجملتان متفقتان في الخبرية لفظًا ومعنى ، كما أن بينهما مناسبة في المعنى ، فكلاهما إخبار عن قدرة الله تعالى ، والجملة فيها إيجاز بديع ؛ إذ على قصرها تضمنت معانٍ كثيرة ، فقد يراد بالبعض الأول الكفار والثاني المؤمنين ، وعلى هذا تكون الآية متضمنة وعداً ووعيداً وعداً للمؤمنين ووعيداً للكافرين وهذا إيجاز آخر ، وقد يراد أن (كلا البعضين من الكفار أي نذيق كلاً بأس الآخر ، وقيل البعضان من المؤمنين)[٢] ، والسؤال : لماذا عبر بالضمير مكان الظاهر ؟ نقول للشمول ، ولتذهب النفس في التفكير كل مذهب ، فيكون القرآن صالحا لكل زمان ، ألا نرى الآن المؤمنين يقتلون بعضهم بعضًا .

صدقت يا الله (فإن ذلك مشاهد في الوجود ، فقد لبسنا العدو في ديارنا ، واستولى على أنفسنا وأموالنا ، مع الفتنة المستولية علينا بقتل بعضنا بعضًا واستباحة أموال بعض) [٣]

---

(١) لسان العرب بتصرف صـ ٢٣٧٧ المجلد الرابع .

(٢) روح المعاني ص١٨٠ ج٧ .

(٣) القرطبي ج٧ ص٩ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نعم إنه أمر مشاهد ، واضح جلي ، فالأمة منذ مقتل عثمان رضي الله عنه إلى يومنا هذا ذاق بعضها بأس بعض .

فهو خبر أريد به إفادة الخبر ؛ لبيان قدرة الله وقوته.

(عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال عند قوله تعالى : (عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ) أعوذ بوجهك " وعند قوله تعالى : (أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) أعوذ بوجهك وعند قوله تعالى : (أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ) هذا أهون أو هذا أيسر وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : سألت ربي ألا يبعث على أمتي عذاباً من فوقهم أومن تحت أرجلهم فأعطاني ذلك وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعني ذلك) .[1]

وفي قوله (يُذِيقَ) استعارة بالكناية ، وما أروعها .

(والإذاقة والإنالة والإصابة هي من أقوى حواس الاختبار ، وكذا استعمالها في كلام العرب ، وفي القرآن قال تعالى : (ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ) القمر ٤٨) [2]

(انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ) الأنعام ٦٥

أي انظر بعين عقلك أيها الرسول - ومثله في هذا كل مخاطب بالقرآن - كيف نصرف الآيات والدلائل فنجعلها على أنحاء شتى ، منها ما طريقه الحس ، ومنها ما طريقه العقل ، ومنها ما طريقه علم الغيب - لعلهم يفقهون الحق ، ويدركون كنه الأمر ، فإن الفقه هو فهم الشيء بدليله وعلته ، المفضي إلى الاعتبار والعمل به ، وإنما يرجى تحصيله بتصرف الآيات وتنويع البينات .

([1]) أبو السعود ص١٤٦ ج٣ دار إحياء التراث العربي .

([2]) البحر المحيط صـ ٥٤٤ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والحكمة من تصريف الآيات أن في اختلاف الآيات ما يقتضي الفهم ، إن غربت آية لم تغرب أخرى ، ففيه تقرير وتقريب تقرير للمعنى ، وتقريب إلى الفهم ، وفي لفظ (نصرف) من البلاغة ما فيه ؛ إذ جاءت معبرة عن مخاطبة كل إنسان بما يردعه ، ويخوفه من عذاب الله ، فآيات الله متنوعة لتقيم الحجج والبراهين على المخالفين .

(لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ) (بطلان ماهم عليه من الشرك والمعاصي) [١]

ض

ثم ننتقل مع القرآن بعد ذلك إلى تلك الآيات التي حوت في سبق معجز إشارة علمية جيولوجية بأسلوب وحيد فريد بليغ يدل على أن خالق هذا الكون هو منزل هذا القرآن .

إنها إشارة خسف الأرض.

(والخسف أن تنهار الأرض بما عليها ، يقال بئر خسيف إذا انهدم أصلها ، وعين خاسف أي غائرة حدقتها في الرأس وخسفت الأرض وانخسفت : ساخت بما عليها)[٢]

وورد معنى الخسف (أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ) الإسراء ٦٨ أي أن يغيبه الله تعالى ويذهب به في أعماق الأرض مصاحبًا بكم أي وأنتم عليه)[٣]

---

(١) القرطبي ج٧ ص١١ .

(٢) أساس البلاغة صـ ١٢٦

(٣) فتح القدير ج٣ ص١٤٣ ، الجامع لأحكام القرآن ج١٠ ص٢٩٢ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والخسف : الغور في أعماق الأرض حدث قديمًا مع قارون لما خسف الله سبحانه وتعالى به الأرض ، ويحدث في كل زمان ومكان .

وعصرنا هذا شاهد على صور كثيرة من الخسف ؛ فقد حدث خسف رهيب في غواتيمالا (دولة تقع في قارة أمريكا الجنوبية) وقد تناقلتها وسائل الإعلام العالمية ومنها شبكة الأمريكية الإخبارية) في ٢٣ فبراير ٢٠٠٧)

die after giant sinkhole swallows Guatemala)
(homes 2

حيث خسف الله الأرض بعدة منازل في وسط العاصمة غواتيمالا لمسافة ١٠٠ متر في أعماق الأرض ، وقتل العديد من السكان في الخسف .

ومن أحد حوادث الخسف الرهيبة التي حدثت في غواتيمالا (دولة تقع في قارة أمريكا الجنوبية) فقد تناقلت وسائل الإعلام العالمية ومنها شبكة (CBC الأمريكية الإخبارية) في ٢٣ فبراير ٢٠٠٧ بعنوان (٢ die after giant sinkhole swallows Guatemala .(homes

حيث خسف الله الأرض بعدة منازل في وسط العاصمة غوتيمالا لمسافة ١٠٠ متر في أعماق الأرض وقتل العديد من السكان في الخسف ، وإليكم بعض الصور الحقيقية التي تناقلتها وسائل الإعلام العالمية

ض

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

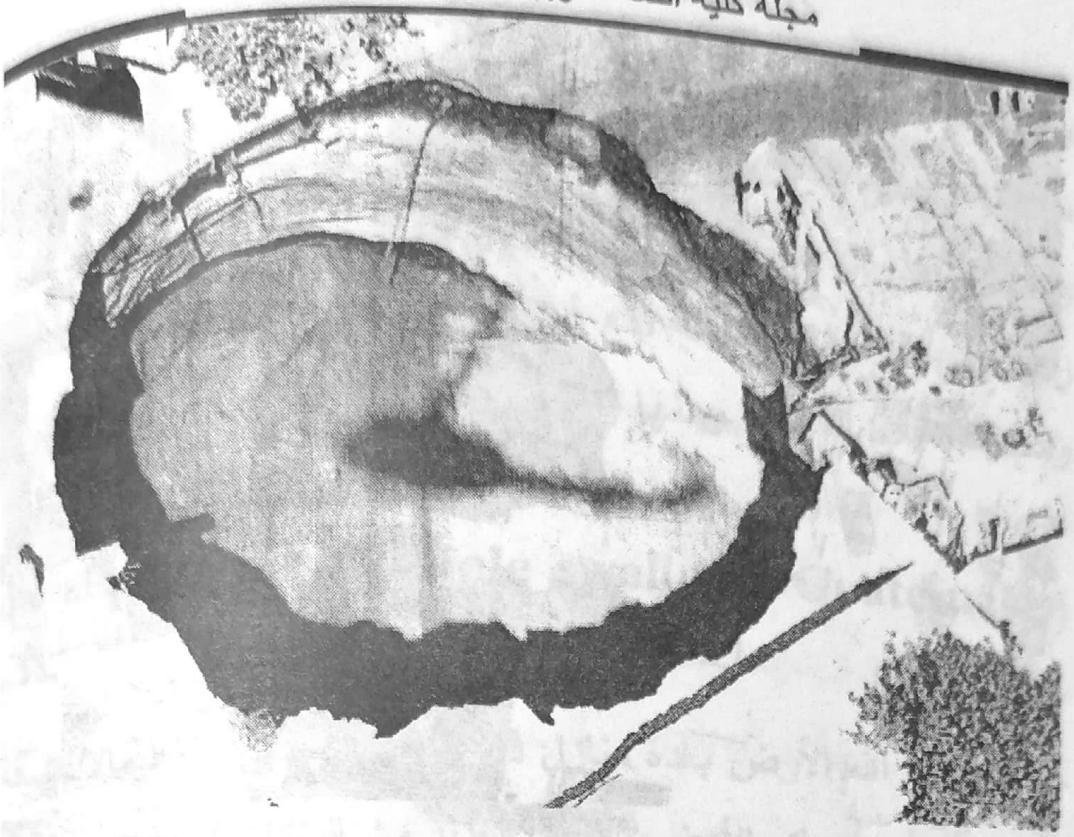

خلاصة القول : إن الله قادر سبحانه أن يهلك من شاء من عباده في أي مكان وأي زمان ، فلا يأمن الكفرة والمعرضون عن نهج الله من أن يصيبهم عقابه إن لم يعودوا إلى صراط الله ويتقوه حق تقاته.

قال الله تعالى (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) النور ٦٣ صدق الله العظيم.

وما أروع التعبير بالفعل المضارع (يخسف) (نخسف) الذي يدل على التجدد والحدوث ، إنها ظاهرة تتكرر على مر الأزمان .

إن الخطاب في هذه الآيات موجه إلى كل معرض عن نهج الله تعالى ألا يأمن عقاب الله سبحانه وتعالى في البحر أو في البر ، فالله الذي يُغرق في البحر هو القادر أن يخسف في البر أيضًا ، والله على كل شيء قدير .

إنها آيات سيقت للدلالة على العناية الإلهية بالنواميس الكونية ، والبيئة الأرضية ومقومات الحياة .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يقول محمد الطاهر بن عاشور :-

" وقسم يحتاج إدراك وجه إعجازه إلى العلم بقواعد العلوم ، فيتيح للناس شيئًا فشيئًا ، انبلاج أضواء الفجر على حسب مبالغ المفهوم وتطورات العلوم " (١)

إن هذه النصوص شاهدة على تواصل القرآن مع سياقات التلقي المختلفة ، فعبد القاهر قد دفع دفعًا إلى ضرورة البحث في علل التباين بشكل عام ثم خص الظاهرة البلاغية بمزيد اهتمام وعناية " واعلم أنه ليس إذا لم يكن معرفة الكل وجب ترك النظر في الكل ، وأن تعرف العلة والسبب فيما يمكنك معرفة ذلك فيه ، وإن قل فتجعله شاهدًا فيما لم تعرف أخرى من أن تسد باب المعرفة على نفسك وتأخذها عن الفهم والتفهم ، وتعودها الكسل والهوينى "(٢)

فلا بد من البحث في علل التباين بين الأساليب .

وما أروع التعبير بقوله : (جانب البر) إذ جاء مطابقًا لما اكتشفه العلماء في العصر الحديث من أن الأرض ليس مدلولها المادي فقط ، أي ليست الماء والكرة الأرضية اليابسة ولكن أيضًا الغلاف الجوي جزء من الأرض يلازمها ويدور معها ومكمل للحياة عليها ، ومما يؤكد هذه الحقيقة العلمية قول الله عز وجل في آية أخرى : (قل سيروا في الأرض) فقال (في الأرض) ولم يقل (على الأرض) ؛لأننا بعد الاكتشافات العلمية نسير في الأرض وليس على الأرض ؛إذ الغلاف الجوي متمم للأرض وعندما نخرج منه نكون قد خرجنا من الأرض .

---

(١) التحرير والتنوير مجلد ١٥ ، صـ ١٧٣

(٢) دلائل الإعجاز للجرجاني ج١ ص٨٦

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فالمقصود هنا بجانب البر الأرض اليابسة .

ففي هذا اللفظ تحديد دقيق لمكان الظاهرة الجيولوجية .

إنه تعبير فني مقصود حسب لكل كلمة فيها حسابها ، بل لكل حرف ، بل لكل حركة .

تعبير يجعلك تنتهي إلى حقيقة مسلمة وهي أن القرآن لا يمكن أن يكون من كلام البشر ، وأن الخلق أولهم وآخرهم لو اجتمعوا على أن يأتوا بمثل هذا التعبير ماقدروا ولا قاربوا.

وقد يكون المقصود بجانب البر ناحية الأرض ، وسماه جانباً لأنه يصير بعد الخسف جانبًا فهو مجاز مرسل باعتبار ما سيكون ، أو سمي جانب لأن البحر جانب من الأرض والبر جانب .

ولا شك أن قوله : (جانب) إطناب أفاد أيضًا إلى جانب ماذكر سابقًا بيان قدرة الله وعظمته وقهره وسلطانه ، فالجوانب والجهات متساوية بالنسبة إلى قدرته لو أراد خسفها جميعًا لفعل ، إن في هذا الجانب عبرة وموعظة .

والسر البلاغي من وراء ذلك المجاز التصوير الحي الدقيق لما سيحدث ، فكأنه حادث واقع ماثل أمام العين .

(وقيل إنهم كانوا على ساحل البحر ، وساحله جانب البر ، فكانوا فيه آمنين من مخاوف البحر ، فحذرهم ما أمنوه من البر كما حذرهم ما خافوه من البحر)[1]

وفي قوله (أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ ...) ٦٨ الأسراء

([1]) - فتح القدير جـ ٣ صـ ٢٤٣ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفاء للعطف على محذوف تقديره أنجوتم فأمنتم فحملكم ذلك على الإعراض ، فإن من قدر على أن يهلككم في البحر بالغرق قادر أن يهلككم في البر بالخسف ، فالآية فيها إيجاز بالحذف .

والاستفهام معناه الإنكار ، أي لا ينبغي لكم الأمن .

أو التعجب أي كيف تأمنون أن يخسف الله بكم جانب البر بزلزال أو بركان أو بغيرهما من الأسباب المسخرة لقدرة الله .

والباء في قوله : (بكم) قد تكون للمصاحبة على معنى أن يذهب الله بجانب البر في أعماق الأرض مصاحبًا بكم وأنتم عليه.

وقد تكون للسببية على معنى أن الله يغيبه بسببكم ، والذي أرجحه الأول ؛ لأن المعنى ذهاب البر الذي هم فيه ، وفي ذلك هلاك لهم ، ففي التوعد به فائدة ، ولا أرى هذه الفائدة في خسف جانب البر بدونهم .

إن نظم الآية يشعر بتمكن القدرة ، أي أن قدرته تعالى بالغة ، فإن كان نجاكم من الغرق وكفرتم بنعمته فلا تأمنوا إهلاكه إياكم وأنتم في البر ، إما بأمر يكون من تحتكم مثل تغوير الأرض بكم ، أومن فوقكم مثل إرسال حاصب عليكم.

ثم قطع كل سبل النجاة بقوله :(لَا تجدُوا لكُمْ) عن حلول أحد هذين بكم من تكلون إليه فيتوكل في صرف ذلك عنكم .

(وكيلًا) حافظًا ونصيرًا يحفظكم من ذلك ، ويمنعكم من بأس الله .

ويستمر الله عز وجل في عرض آياته الجيولوجية المرئية التي تدل على قدرته ، والتي يخوف بها عباده .

(أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ ...) سبأ ٩

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وانظر إلى بلاغة (إن) ، فإن القرآن الكريم يستخدمها فيما لا يستحسن وفيما يقل وقوعه ، أما (إذا) فهي لما يستحسن ويكثر وقوعه ، وقد ورد ذلك في القرآن الكريم كثيراً ومن ذلك : (فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ) البقرة ١٥٦ ، (فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ) البقرة ١٥٦

وقوله :(إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ ... إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ ... فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ) النساء ١٠١ : ١٠٣

وقوله :(فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ ... وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ) الأعراف ١٣١

وقدم المفعول (فكلاً) ليفيد الحصر ، فالكل أخذ عقابه ، والكل جوزي بجنايته ، لا بعضًا دون بعض ، كما أفاد التقديم الاهتمام بأمر الاستيعاب والاستغراق ، والاهتمام بشأن المخاطبين.

وقوله :(فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا) تفصيل وتوضيح للأخذ ، واستيفاء لجميع أقسامه.

(وما كان اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ) العنكبوت ٤٠ بما فعل بهم ، فإن ذلك محال من جهته تعالى .

(ولكنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) العنكبوت ٤٠ بالاستمرار على مباشرة ما يوجب ذلك من أنواع الكفر والمعاصي مع أن النفس أولى برأفة صاحبها ، والجملة إطناب غرضه البلاغي دفع توهم انتفاء موجب العقاب ؛ لأنه عز وجل لما نفى الظلم عنه في عقابهم قد يوهم هذا انتفاء موجب العقاب ، فجاء هذا الاستدراك لرفع هذا التوهم .

والآية فيها إطناب بالتفصيل بعد الإجمال للدلالة على عظيم تصرف الله ، وأتت الفاء لتفريغ ذلك التفصيل على الإجمال .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وانظر إلى بلاغة الاستعارة التصريحية في (أخذنا) حيث شبه الهلاك بالأخذ بجامع إزالة الشيء من مكانه ، فاستعير له لفظ (أخذ) وتأمل براعة التعبير في هذا الإسناد (وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ) العنكبوت ٤٠ حيث أسند فعل الأخذ للصيحة ولم يقل : أخذناه بالصيحة مع أنه الموافق لما قبله دفعًا لتوهم أن يكون سبحانه هو الصائح جل جلاله.

وبعد أن تكلم الله عز وجل عن نعمته على عباده بتذليل الأرض لهم وإيداعها أسباب الحياة التي تهيأ استقرارهم عليها والسير فيها ، واستغلال ترتبها ومائها وهوائها وكنوزها قال:

(أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ) الملك ١٦

والآية فيها إيجاز بالحذف أي عقوبة من في السماء ، وبلاغة هذا الحذف بث الرعب والخوف في النفوس ، فلا شك أن الله عز وجل له رهبة في النفوس وخوف في القلوب .

ومما يؤكد هذا السر البلاغي قوله (السماء) حيث خصها بالذكر وإن عم ملكه استكمالاً للرهبة ، فالسماء مصدر للفوقية والعلو والسلطة والقوة والجبروت والقدرة .

ثم إن في السماء إشارة أخرى وهي (التنبيه على أن الإله الذي تنفذ قدرته في السماء لا من يعظمونه في الأرض)[1]

ثم يتملكنا الرعب والخوف بهذا التصوير القرآني للأرض التي نراها ثابتة تحت الأقدام فإذا بها ترتج وتمور وتقذف بالحمم وتفور ، يقول تعالى (إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا) الزلزلة ١

---

(١) القرطبي ج١٨ ص٢١٥ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- إن حديث القرآن عن الحقائق الغيبية وربطها بالحقائق العلمية هو أمر معجز ويدل على أن القرآن إنما يخاطب العقول بلغة العلم والإقناع ، وإنكم أيها الملحدون كما ترون هذه الزلازل ، وتشاهدونها وتنظرون إلى الاضطرابات التي تصيب طبقات الأرض فلا بد أن يأتي ذلك اليوم الذي يحدث فيه الزلزال الأعظم ، حيث تتشقق الأرض ، وتخرج ما بداخلها من حجارة ثقيلة ، وترتجف هذه الأرض بفعل هذه الزلازل ، فكما أن الله حدثكم عن هذا اليوم ، لا بد أن تستيقنوا أن هذا اليوم آت لا محالة ؟ فماذا أعددتم له .

ثم تأمل ببناء الفعل (زُلْزِلَتِ)للمجهول وحذف الفاعل تنبيهًا على أن هذا الفعل لا يمكن أن يكون إلا من الله عز وجل فلا قدرة لغير الله على ذلك .

فالفعل إذا تمحص لفاعل واحد حسن حذف الفاعل .

كما أن في حذف الفاعل لفت النظر لهذا الحدث المهم ، فالمطلوب هو استشعار الفعل والاهتمام به ، أما الفاعل فمعلوم ومعروف .

كما أن في حذف الفاعل دلالة أخرى وهي بيان سهولة إحداث هذا الفعل عند ذلك الفاعل ، فلا يحتاج نسبته إلى الله تعالى ، وهذا منتشر في القرآن كثيراً .

- وانظر إلى تلك البلاغة في ذكره للأرض دون أجزائها ؛ كالجبال مثلاً أو البحار ؛ لأن الأرض هي موطن السكون ، ولولا أنها ساكنة لما استطعنا أن نعيش عليها ، فلما كانت هي موطن معيشة البشر كان ذلك أخطر شيء يخيف الناس وهو الزلزال .

وفي قوله (زلزل) تكرير للحروف ، أي تكرير للمعنى ، فزل ليست مثل زلزل ؛ لأنه لما أريد إحداث الفعل أكثر من مرة - وهو في ذلك أعظم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دمارًا ، كما أنه مطابق للواقع - ناسب أن يكرر الزاي واللام للدلالة على تكرار هذا الفعل أكثر من مرة .

ثم لما تحدث عن الإخراج نسبه إلى الأرض ، ولا يتحدث عن الإخراج إلا إذا كان الشيء مخفيًا لم ير ، فدل ذلك على أن الأشياء التي كانت داخل الأرض كانت محجوبة بالأرض نفسها .

وذكر الأرض مرة ثانية حتى تكون كل جملة قائمة برأسها فيكون هناك اهتمام بإظهار زلزال الأرض ويكون اهتمام آخر بإظهار إخراج الأرض ، والتأكيد عليه لمخالفته للعادة ؛ لأنه بالعادة إذا حصل زلزال يحدث تدمير ، فبدل أن يكون هناك إظهار للمخفي يكون هناك إخفاء للمظهر .

ثم عطف قوله (وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا) الزلزلة ٢ على قوله (إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا) الزلزلة ١

لأن هناك علاقة وثيقة بين الزلزال والبركان ، فكلاهما يعمل بنفس الآلية ، ويعتبر العلماء اليوم بعض الزلازل مؤشرًا عل قرب حدوث البركان الذي تقذف فيه الأرض كميات كبيرة من الحمم المنصهرة .

وما أروع القرآن وما أجمله وما أبلغه وما أبدعه إذ جاء رابطًا بين هاتين العمليتين ، فأكد على حدوث الزلزال أولاً ثم إخراج الأرض أثقالها (أي الصخور الملتهبة وهي طبعًا أثقل من الصخور التي على سطح الأرض)

إن بين الجملتين توسطًا بين الكمالين فكلاهما خبري لفظًا ومعنى مع وجود مناسبة بينهما وهي تلك الحقيقة العلمية التي لم يدركها العلماء إلا عندما نزلوا إلى أعماق المحيطات وشاهدوا التشوهات في الألواح

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأرضية والانهيارات التي تسبب الزلازل القوية وخروج كميات هائلة من الصخور الملتهبة.

ومن هنا لابد أن نقف لحظة تأمل ، من كان يعلم زمن نزول القرآن بوجود علاقة بين الزلزال وبين الحمم المنصهرة التي تقذفها الأرض عقب الزلزال ؟!!!

لقد أكد القرآن هذه الحقيقة في نص كريم آخر يتحدث عن يوم القيامة ، يقول تعالى:

(وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤)) الانشقاق ٣- ٤

ففي هاتين الآيتين إشارة واضحة إلى علاقة الزلزال بامتداد الأرض ، أو بتعبير آخر بتمدد الألواح الأرضية وحركتها ، وإلقاء ما بداخلها نتيجة هذا التمدد .

ولذا استخدم القرآن (إذا) في قوله (إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا) الزلزلة ١ ؛ لأنها تأتي قبل ذكر الحدث الذي لا بد من وقوعه ، فالشرط فيها مقطوع بوقوعه ، ولم يستخدم (إن) لأنها تأتي قبل ذكر الحدث النادر الوقوع ، مثل : (يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا) الحجرات ٦

قال الزمخشري : وللجهل بمواقع (إن وإذا) يزيغ كثير من الخاصة عن الصواب فيغلطون.

- إذا حرف شرط غير جازم يدل على المستقبل ، وهذا من بلاغة القرآن ، فالزلازل مستمرة إلى يوم القيامة ، وهذا ما يطابق الواقع ، فمن وقت لآخر نفاجئ بزلزال جديد .

ثم يشير الله عز وجل إلى الزلزال الأعظم ، وهو زلزال يوم القيامة بقوله (زلزالها) ، فأضاف الزلزال إلى الأرض إشعارًا بهذا المعنى ، فزلازل الدنيا لا تعد شيئًا بالنسبة للزلزال الأكبر ، فواضح من السياق أن ما سيحدث يوم القيامة سيكون أكثر هولاً وأشد وقعاً ، وأنه لا وجه لتشبيه ما سيحدث في ذلك اليوم بما ألفه الناس أو عرفوه في دنياهم ، فهو الخصيصة الخاصة لهذه الأرض ، وذلك مثل أكرمت فلانًا كرامته ، أي التي لم يحصل مثلها من قبل .

ومن دلالات الإضافة أيضاً العموم والشمول ، أي زلزالها الشامل العميم الذي يشمل كل أنحائها ، وإذا قال : زلزالاً لم يفد العموم .

وذكر المصدر للتأكيد ، ثم أضيف إلى الأرض ، وحسن ذلك لموافقة رؤوس الآي بعدها.

ويعني زلزالها الأكبر الذي لا يعد ما قبله شيء في الزلازل ، فإذا كنا نخاف من زلازل الدنيا الصغرى ، فما بالنا بزلزال بهذا الوصف الرباني .

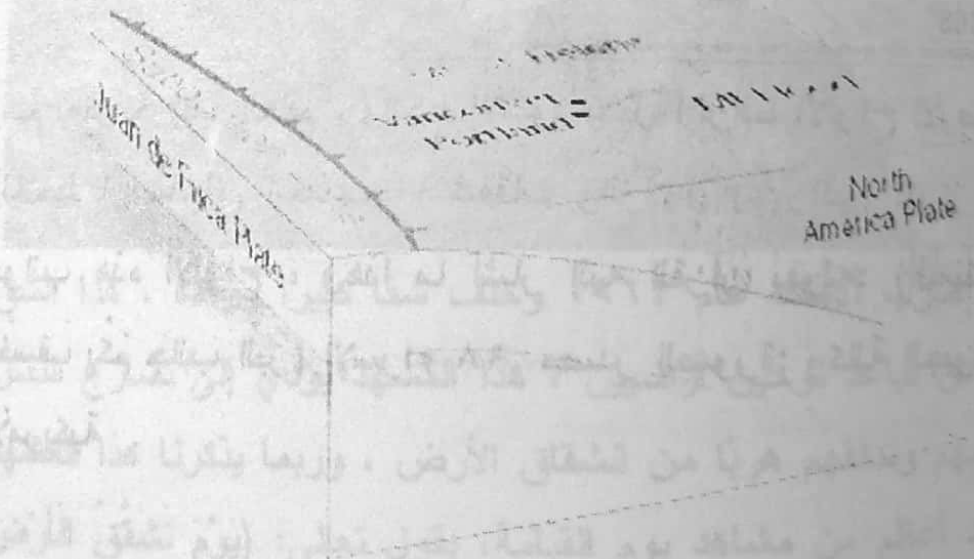

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رسم تخطيطي لمقطع من سطح الأرض ، ويظهر عليه لوح أرضي ينزلق تحت لوح آخر باستمرار ، إن هذه العملية تؤدي إلى ارتجاف في هذين اللوحين عند منطقة الاحتكاك ، وتحدث الهزات الأرضية نتيجة ذلك، ونراها على شكل زلزال مدمر، إن حركة الألواح وتمددها قد أشار إليه القرآن في آية عظيمة، يقول تعالى: (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ) الرعد ٣، وقوله تعالى: (والأرض مددناها) الحجر ١٩، وهذه حقائق لم يكن لأحد علم بها وقت نزول القرآن !

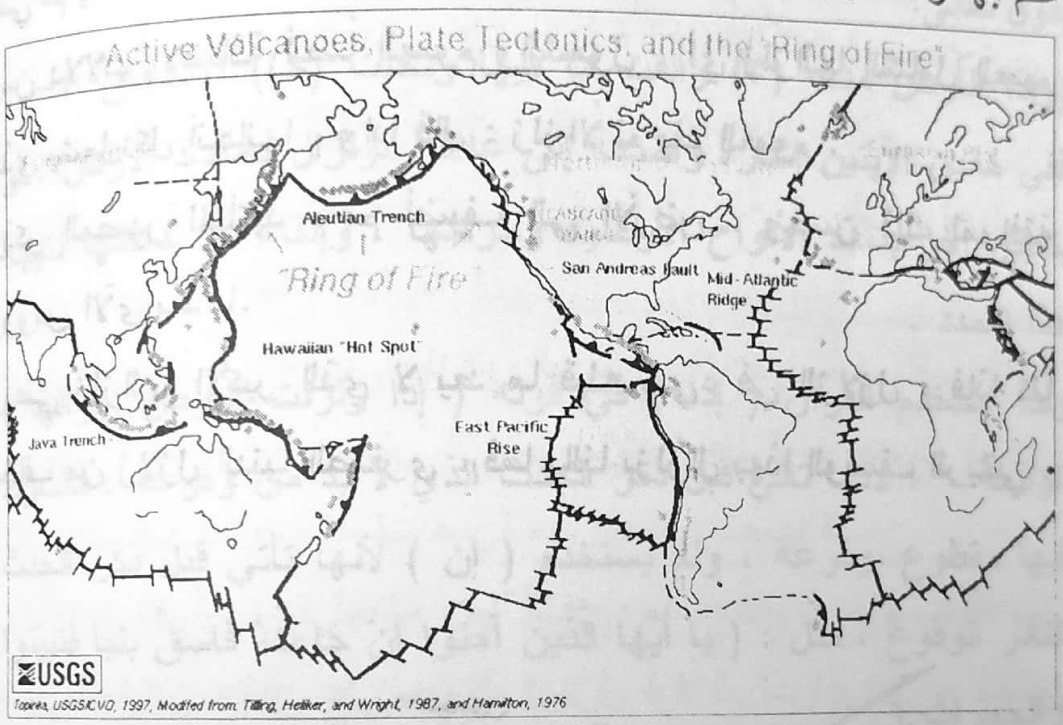

رسم يمثل خريطة العالم ، والخط الأسود يمثل أطراف الألواح الأرضية ، ونلاحظ أن مناطق الخسف والتشققات والزلازل والبراكين تتركز على جوانب هذه الألواح ، وهذا ما أشار إليه القرآن بقوله: (أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ) الإسراء ٦٨. مصدر الصورة: وكالة الجيولوجيا الأمريكية .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

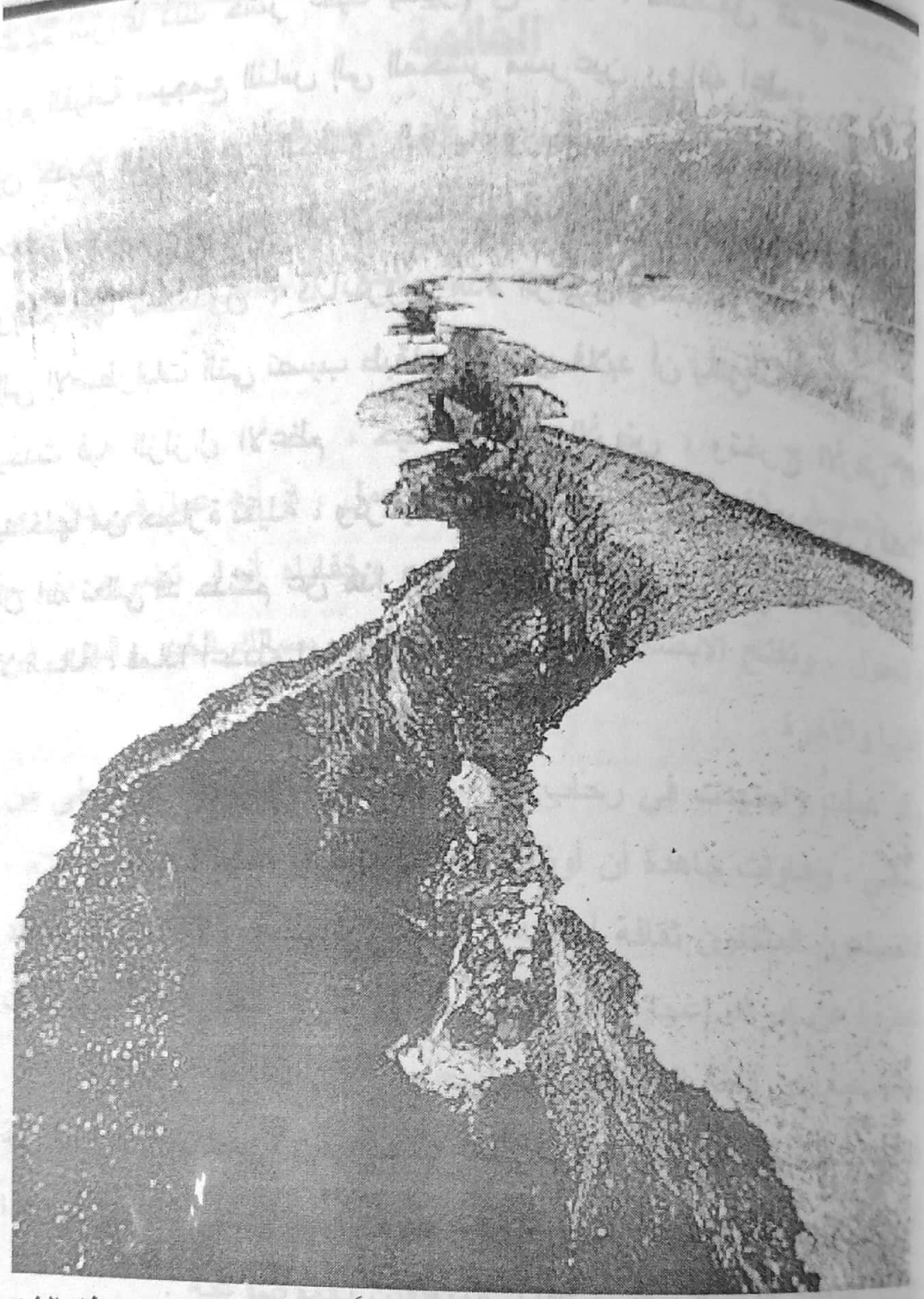

ض

زلزال ضرب ألاسكا عام ١٩٦٤ وخلف شقًا كبيرًا وراءه ، هذا الشق ناتج عن تباعد لوحين أرضيين ، هذا المشهد يؤدي إلى تسارع الناس وهروبهم وتدفقهم هربًا من انشقاق الأرض ، وربما يذكرنا هذا المشهد بمشهد أعظم من مشاهد يوم القيامة، يقول تعالى: (يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ) ق: ٤٤ ، فالتشقق الذي سيحصل يوم القيامة سيجمع الناس إلى المحشر مسرعين ، والله أعلم.

إن حديث القرآن عن الحقائق الغيبية وربطها بالحقائق العلمية هو أمر معجز، ويدل على أن القرآن إنما يخاطب العقول بلغة العلم والإقناع، وإنكم أيها الملحدون : كما ترون هذه الزلازل وتشاهدونها ، وتنظرون إلى الاضطرابات التي تصيب طبقات الأرض فلابد أن يأتي ذلك اليوم الذي يحدث فيه الزلزال الأعظم ، حيث تتشقق الأرض ، وتخرج الأرض ما بداخلها من حجارة ثقيلة ، وترتجف هذه الأرض بفعل هذه الزلازل ، فكما أن الله تعالى قد حدثكم عن هذا اليوم ، لابد أن تستيقنوا أن هذا اليوم آت لا محالة ، فماذا أعددتم له؟!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين ، الذي أنزل على عبده الكتاب هداية وشريعة ، وهو خير الدنيا وسعادة الآخرة ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الأمين ، الذي أرسله الله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

وبعد ..

فإن العمل في القرآن الكريم لهو أشرف العمل ، إذ أنه عمل في كلام الله تعالى ، وإن حقيقة هذا الكتاب الخالد ، وخفاياه أنوار تضيء القلوب والعقول ، وتفتح الأبصار والأفئدة ، لتقود إلى مسالك الخير والهدى في الدنيا والآخرة .

وقد عملتُ واجتهدتُ في رحاب القرآن الكريم ، واستفدت من خطى من سبقني ، وحاولت جاهدة أن أوظف البلاغة توظيفًا عمليًا لخدمة الإسلام ، فالمسلمون المثقفون ثقافة أجنبية ، بل حتى المسلمون العرب أنفسهم قد عجزوا عن إدراك إعجاز القرآن من طريق الذوق الفطري ، حيث حدث بعد شاسع عن اللغة العربية ، وبون بعيد .

فلم نعد نملك في أذواقنا عبقرية اللغة لنتمكن من أن نستنبط من مقارنة أدبية نتيجة عادلة حكيمة ، ومنذ وقت طويل أيضًا تكتفي عقائدنا في هذا الباب بالتقليد الذي لا يتفق وعقول المتعلقين بالموضوعية .

فأردت في هذا البحث أن أحاول الوقوف على إعجاز القرآن بوسائل الإدراك العلمي مضافًا إليها التذوق الأدبي .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكلما ازداد الدارس تعمقًا في فهم النص القرآني ، واستجلائه لا بد أن يقف أمام جلال القرآن الكريم ليدرك معه لماذا أعيا العرب وهم أصحاب اللسن والبيان عن الإتيان بسورة من مثله .

فمن الواجب علينا أن نقدم الإسلام لغيرنا بلغة جديدة يفهمها أهل عصرنا وهى عصر العلم والتقنية ، فالقران وان كان فى الأصل كتاب هداية فى أمر الدين ، فإنه يتضمن أكثر من ١٢٠٠ آية تتحدث عن الكون وظواهره الفلكية أثبتها العلم الحديث وهي فى مقام الاستدلال على حقيقة الألوهية الواحدة والمطلقة لله سبحانه وتعالى لابد للايمان به.

وهذه الآيات وإن كانت تؤكد على قدرة الله فى الخلق فإنها تؤكد فى ذات الوقت على قدرة الله فى إفناء خلقه والكون كله وإعادة البعث.

وختامًا : أسأل الله عز وجل أن يجعل هذا البحث خالصًا لوجهه الكريم ، إنه نعم المولى ونعم النصير ..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فهرس المصادر والمراجع

أولاً : المصادر والمراجع العربية

١ - إرشاد العقل السليم لأبي السعود دار إحياء التراث العربي .

٢ - أساس البلاغة للزمخشري ط الأولى ١٤١٢هـ-١٩٩٢م دار صادر بيروت .

٣ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشيخ العلامة محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي ١٣٢٥ ـ ١٣٩٣ ، إشراف بكر بن عبد الله أبو زيد ، دار عالم الفوائد

٤ - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية - مصطفى صادق الرافعي - المكتبة العصرية بيروت ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م

٥ - الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز لعبد العزيز عبد السلام ،ط دار الفكر بدمشق .

٦ - البحر المحيط ، لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان ، دار الفكر .

٧ - البرهان في علوم القرآن المكتبة العصرية بيروت تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .

٨ - البيان والتبيين للجاحظ ط لجنة التأليف سنة ١٩٥٠م ، سنة ١٣٦٩ه ـ تحقيق هارون الرشيد ١٩٣/٢ .

٩ - التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور الدار التونسية للنشر .

١٠ - التسهيل في علوم التنزيل لمحمد بن جزي الكلبي أبو القاسم ، دار الكتب العلمية ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥ م .

١١ - التصوير الفني في القرآن سيد قطب .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

١٢ - التفسير الكبير للفخر الرازي دار الكتب العلمية ط الأولى سنة ٢٠٠٠.

١٣ - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧.

١٤- الدكتور فاضل السامرائي من برنامج لمسات بيانية على قناة الشارقة .

١٥- الفرق بين الفرق للإمام عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي التميمي ٣٥٠-٤٢٩هـ دراسة وتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، الناشر : المكتبة العصرية - بيروت ١٤١٦هـ-١٩٩٥م .

١٦ - الفروق اللغوية تحقيق أبي عمرو عماد زكي البارون المكتبة التوفيقية .

١٧ - الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري جـ ٣ صـ ١١٤ ، مكتبة العبيكان الرياض ط الأولى ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٨ م.

١٨- المحكم والمحيط الأعظم ، تأليف أبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المتوفى سنة ٤٥٨ هـ تحقيق الدكتور عبد الحميد هنداوي دار الكتب العلمية بيروت _ لبنان .

١٩- المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي جـ١ صـ١٩٢ ، مكتبة دار التراث ط الثالثة .

٢٠ - النظم القرآني في سورة الرعد تأليف محمد بن سعد الدبل عالم الكتب ١٩٧٨ .

٢١ - النقد والإعجاز د/ محمد تحريشي ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ٢٠٠٤م .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٢٢- أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي دار الفكر - بيروت .

٢٣ - تفسير البغوي للحسين بن مسعود البغوي أبو محمد ، المحقق محمد عبد الله النمر دار طيبة ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.

٢٤ - تفسير القرآن العظيم لابن كثير القرشي الدمشقي ، تحقيق سامي محمد السلامة ، دار طيبة للنشر والتوزيع ط الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٢٥ - تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، تأليف الشيخ عبد الرحمن ناصر السعدي دار الصفا للنشر والتوزيع ١٣٠٧-١٣٧٦هـ ، راجعه وقدم له طه عبد الرؤوف .

٢٦ - حديث تلفزيوني للشيخ الشعراوي .

٢٧ - دلائل الإعجاز للجرجاني .

٢٨ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لشهاب الدين محمود الآلوسي إدارة الطباعة المنيرية - القاهرة .

٢٩- فتح القدير للشوكاني ، دار الفكر بيروت .

٣٠ - في ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار الشروق .

٣١ - لسان العرب لابن منظور دار المعارف ، تحقيق عبد الله علي الكبير ، محمد أحمد حسب الله ، هاشم محمد الشاذلي.

٣٢ - مجموع رسائل الإمام القاسم الرسي ، للإمام محمد بن القاسم الرسي ولد ما بين سنة ١٩٨-٢٠٢هـ .

من بديع لغة التنزيل د/ إبراهيم السامرائي دار الفرقان ص ١٨٠.

٣٣ - من علوم الأرض القرآنية د/ عدنان الشريف ط الثانية ١٩٩٤ دار العلم للملايين .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٣٤ - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لإمام برهان الدين البقاعي دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٥ هـ ، ١٩٩٥ م تحقيق عبد الرازق غالب المهدي.

ثانيًا : المصادر والمواقع الأجنبية

١- زحف القارات ، مجلة الفيصل العدد٥٢ ، موسوعة كوستو - عالم المحيطات لافون

٢- الكون الراديوي تأليف جي ـ أس . هي ترجمة عبد الكريم علي بغداد ١٩٩١ م .

٣- الكون ـ تأليف دافيد برجاميني ، مكتبة لايف العلمية ـ بيروت ـ ١٩٧١م .

٤- الكون ـ تأليف كولين رونان ـ الأهلية للنشر والتوزيع ـ بيروت ١٩٨٠م .

٥- كوكب الأرض منشورات تايم لايف ، أمستردام

la planet tere-les voclans tim-life,amsterdam

6-Davies, G., 2005. Dynamic Earth: Plates, plumes, and mantle convection.

2nd Edition, Cambridge University Press, 458 P.47-69

7-Encyclopedie Cousteau- lemondedes oceans, Robert laffont

8-Historic Earthquakes and Earthquake Statistics: Where do earthquakes occur? USGS. 2006-08-14.

9-Laura Conlon, Earthquakes, Rourke, 1993.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

10-Earthquake Facts and Statistics, www.usgs.gov, 01 October 2007.

Earthquake, www.wikipedia.org

http://www.ngdc.noaa.gov/mgg/image/crustageposter.jpg.

http://www.windows.ucar.edu/tour/link=/earth/images/earths_crust_gif_image.html

http://www.windows.ucar.edu/tour/link=/earth/interior/plate_tectonics.html.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner